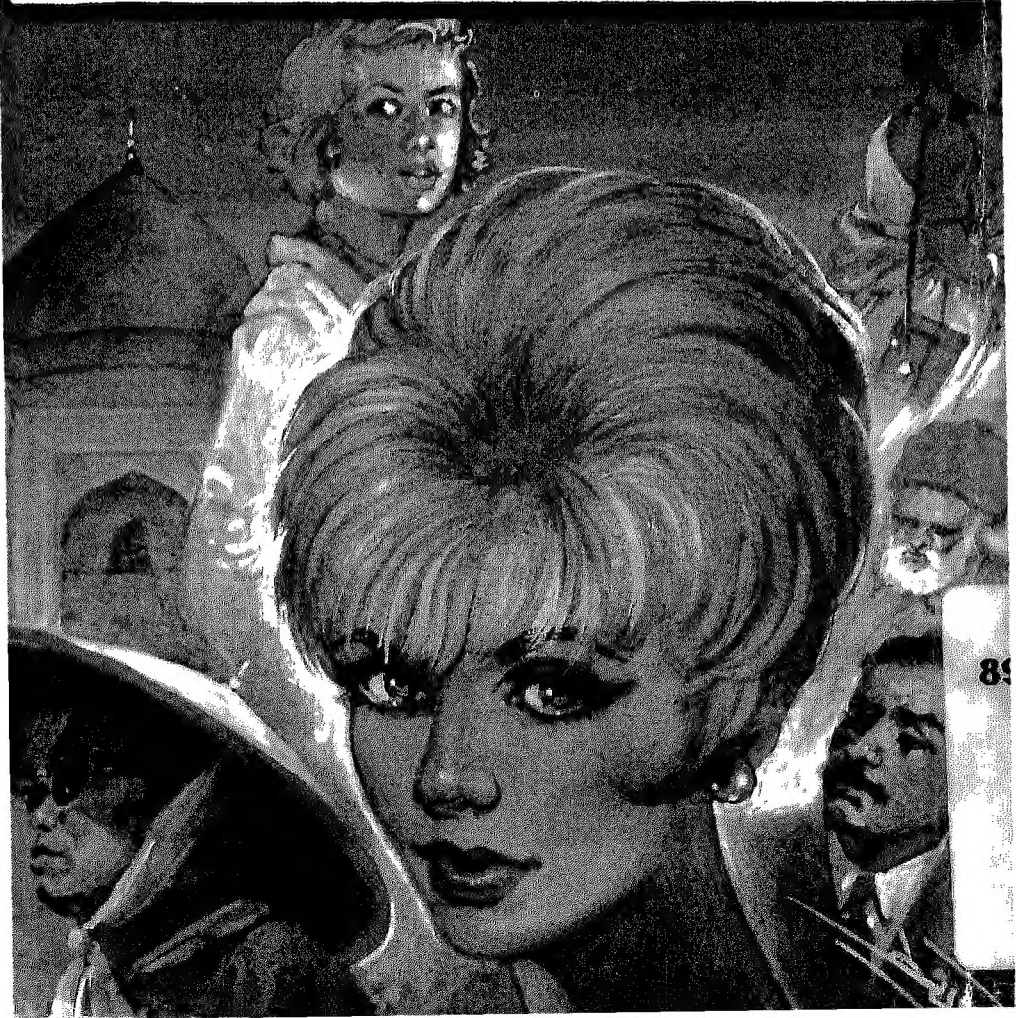


مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٥

روائع الأدب العربي
الأعمال الإبداعية

جمال الغيطاني رسالة في الصباية والوجد



رسالة في الصباية والوجد

رسالة في الصباية والوجد

جمال الغيطاني



مهرجان القراءة للجميع ٩٥
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك
(روائع الأدب العربي)
(الأعمال الإبداعية)

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الحكم المحلي

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

لوحة الغلاف

للغنان جمال قطب

الإنجاز الطباعي والفني

محمود الهندي

المشرف العام

د. سمير سرحان

أما بعد،

اعلم يا أخى الحميم، أيدك البارئ الكريم بمدد من عنده،
 أننى ما أقدمت على البوح لك أنت إلا بعد انقضاء مدى، وما
 شرعت إلا بعد تعاقب أحوال شتى صعب على كتمانها، اقترن
 فيها قريبي ببعدي، واتصالي بانفصالي، وخلف أمرى بتوقيفه،
 وتبادلت جهاتى المواقع، حتى قوى على الشك أن ما جرى،
 جرى، خاصة مع تزايد الحضور بغير كينونة ملموسة، وتكرار
 الظهور بغير معاينة محسوسة، بعد انزواء جل العلاقة فى
 مجرد عبق خفى مستور بالحجب، فلو أفضيت بما عندى بعد
 اكتمال الأوبة، واستقرار العودة، لو لحت إلى ما توالى على،
 ما صدقنى الأقربون، حتى وقع عندى شتات بين إقبالى على
 من أصل أسبابى بهم، لأبوح وأسفر، وتوقى إلى النأى
 والصمت وطى صحفى، هذا ما غلب على، خاصة مع بعد
 الشقة، وانتفاء المحط، وشحط الرؤية، وانعدام المجاورة على
 رسائلى. وزوال معالم الصورة الوحيدة عندى، ووهن دقات

الساعة الخزفية التى أودعتها بين يدي. والأصعب الأدهى،
انتفاء الإمكانية، أحيانا تهدئنى الرؤى، غير أنها تتبدد، فلا
يتبقى إلا قفر المفازة، وغول الطريق، فأثنى ململما فؤادى
طاويا دخائلى، خشية أن يتبدد ما تبقى، وعندما بقيت مدة
مهدهدا، منهكا، مدمدا بالوجد، متخففا من شغاف الوهم،
لقيت الحمل ثقيلًا وإن لم ير، والطوق محكما وإن لم يلتف، لذا
أقدمت على التدوين إليك مع أنك قصى، بعيد عني؛ لكن يشفع
لى عمر انقضى قرب بيننا، جعلك كائى، حتى لو عسرت المودة،
وانفرط العقد، وتباعد الشمل، وندرت اللقيا، بقيت أنت كالجهة
التى لا تدرك بالحواس وإنما يتوجه المرء إليها، هكذا وليت
يهمى صوبك، لعلى باسترجاع ما تبدد، وروايتى لما يخيّل إلى
أنه جرى، أقف على توكيد يطمئننى، يرسخ الحجة عندى،
فاحتملنى يا أخى وإن أطلت، ولا تذرنى إن أثقلت، ولا تنصرف
إن فصلت، ويحق العشرة القديمة، تلمس لى العذر فى شدة
تهيامى.

ديهاجة الظهور

... اعلم يا أخى أولا سبب مجيئى إلى ديارها، ونزولى
 بلادها، أقول - أدناك الله من مبتغاك، وحقق لك مطلوبك - إننى
 ما جئت إلا لفترة محدودة بأيام المؤتمر، إذ دعانى القوم
 للمشاركة والمداولة والمناظرة فى أفضل السبل للحفاظ على
 المباني العتيقة، وترميم ما تصدع منها، وما يتهدهه البلى، وهذا
 لب انشغالى منذ ربيع قرن وعدة من سنوات آخر، ولى فى هذا
 المضمار قول وصولة وتجربة، ألقىت بحثى، أبديت وجادلت
 نفرا قدموا من بلاد شتى، جئت برفقة واحد ممن علمونى
 المعمار، وأضاعوا لى أسرار البناء، أحالوه إلى التقاعد فى
 موطننا، غير أنه لم يركن، ولم ينه الخطه، تراه فكأنه سيبدأ
 تحصيل المعرفة لأول مرة مبدىا حمية وحماسا أوليا ولطف

تدبير، إذن، جئت موطنها ضعيفاً، غريباً، محدود الإقامة، مدتي مبينة، مثبتة على وثائق سفرى، أما توقيت إقلاعى إلى منازل أهلى فمقدر سلفاً، أنى منقلب حينما جئت، هذا إدراك مدبب فى وعيى، وبرغم وقوفى على موقوتية زمنى بالقرب منها، إلا أننى عند ظهورها انسقت غير عابى، كاشطاً الصدا عن مغاليق طال إقفالها.

ستسال، متى بدأت الرؤية؟ متى تحقق نظرى منها تمكن؟ والله يا أخى ما من إجابة دقيقة، ما من تحديد، لو قلت لك إنها قديمة عندى، سارية داخلى منذ قدر لا أعرف تعيينه، فلا تكذبنى، وإن أمرها بدأ معى قبل مجىء موطنها هذا فلا تنح كلماتى، وإن قلت إننى ما قطعت زمنى المنقضى إلا ماضيا تجاهها، وعند لحظة معينة تلاقينا فتفجر الشرر، وانتشرت الشهب، وامتزج المبتدأ بالخبر، فلا تتكى على. وإن قلت لك إن هذا الكون بمجمله مكان لأراها فيه فلا ترمنى بالشطط !.

المقطوع به فى عالم الممكنات أنها لم تفارق موطنها هذا الذى أجيئه أول مرة، أين هذا الماضى المولى كله؟ لا أدرى، يقينى أيضا أن عيني وقعتا عليها فى الفندق الكبير، حيث نزلنا واجتمعنا، لابد أنها راحت وجاءت . تمهلت أو مرقت ، غير أننى بقيت غافلا، فلم تكتمل كينونتى بعد، ربما لأن الجمع كثير، والذهن مشغول بأمور شتى، لكننى أنثنى وأقول، إن هذا غير دقيق، فكددى لم يكف، ولم يخفت أبدا. اعلم يا أخى أن

الظهور الذى أعنيه، له حين مقدر، جريت هذا وعرفته، حدث منذ عشرين سنة مضت أثناء تدريبي بمركز علمي، أن اعتدت المرور بشابة تقعد إلى مكتبها، أبادلها التحية وأمضى، إلى أن لاحت لى بعد طول استتار، بدت فجأة، توهج لحظها وألق عينيها، وشوارد مفلّنة من داخلها المضىء، فانتبهت، وبدأت سعيي، متعجبا، كيف غفلت عنها؟ كيف وفى ظرف آخر، جاءتني بنية هيفاء، رحية، ولحظة دخولها الحجرة نفذت مباشرة صويي، وصار بيني وبينها شأن، ثم انقضى الوقت، فلا تبدأ صلة إلا ونهايتها فى مفتحتها، وهذا أمر له تفصيل، لعلى مورده فيما بعد. أعلم أنه ما من بداية تشبه الأخرى، منها ما يحاكى ظهور الطل، ومنها ما يشبه تدفق السيل المياغت. أما هذه البنية فلاحت لى شيئا فشيئا، قبل ظهورها فى هذا الصباح المبكر.

صعب على التحديد، مع أن يقينا يداخلنى الآن وقد انحلت المدة وغابت الحضرة، أننى لم أكف عن مشاهدتها طوال وقتي، أجوس خلال ذاكرتي متلمسا خيالات واقع أمسكته بين يدي ثم انطوى، ولى، وخلف عندي البين والوجد، بعد انتهاء المؤتمر، سافرنا فى طائرة معا مع بدء الرحلة إلى أسيا الوسطى حيث قصدنا معاينة ما شيده الأقدمون، ضمنا هذا الفندق فى الليلة الأولى وإن تباعدنا جزنا العتبات، ولجنا القاعات، ركبت العربة التى أقلتنا من المطار إلى مأوانا، جلست بجوار صاحبي، ملصقا وجهي بزجاج النافذة، متلمسا معالم المدينة التى لم أتصور أننى بالغها يوما، يمكننى تحديد اليوم، ثلاثاء، يوم من

أيام هذا الكون، عند الفجر صحت مبكراً، عندى تأهب غامض، وشعاع خفى من وهج، شأن المقدم على رؤية مالم يخطر على قلبه أو باله قط. قمت وبدايات الضوء الأسوي تنفذ عبر الواجهة الزجاجية، أزحت الستار، تطلعت إلى الملامح التي لم أتبينها عند وصولي ليلاً، جلت ببصري عبر الحديقة، لم يوهن الشتاء من خضرة حشائشها وأشجارها، أما رد فعلى عند رؤية شجر التوليب الباسق، الملتف، الململم، فكان تنفسا عميقا، هذا شجر لم أطالعه إلا فى منمنمات المبدعين الأقلين من أبناء الناحية، عرفت العديد منها، ودرست ما تضمنته، وأطلت النظر إلى توقيع خجل، متواضع، لعظيم ممن تنفسوا هواء تلك البقاع، اسمه «بهزاد»، إذن.. هذا شجر توليب، تبدأ الحديقة بعد انتهاء الساحة المبلطة برخام وردى، منبسطة تحت الفراغ الشفقى، ومن هذا الحد بدت، فى الصباح الأسوي تجول، تسعى، لم يكن إلا هى، تمضى إلى حد الحديقة الأيسر، تنثنى حتى الحد الأيمن، أنثى، فارهة، باسقة، لها طلع، تفسح خطاها ما بين شجرتى توليب بعينهما، لم أدر، هل قامتا منذ أزل قديم، أم نبتتا مع مجيئها؟ ترتدى معطفاً رمادياً طويلاً، سافرة الشعر، لا تحجبه بغطاء الفرو الثقيل، مناخ تلك النواحي مختلف عن العاصمة التي قدمنا منها، اعلم يا أخى أننى بدأت معراجى ببصري صوبها، وبمجرد بدء الرؤية أدركت أن قدرى يكمن فى هذا الحضور الإنسانى، لم أدقق ملامحها، فالبصر كليل، والمسافة غير مساعدة، تردد عندى وجودها، وصلنى

تأثيرها فى هذا العالم، انبثاق حركتها ما بين الشجرتين الفارهتين، لماذا نزلت مبكرة، أترك رياضتها اليومية؟ أهذه حركتها المعتادة فى مثل هذا التوقيت؟ هل رصدت قلعا فى إيقاع خطوها؟ ربما، ساحت داخلى بهجة لم أعهدا منذ زمن، وتفجر عندى بشر كالزمن الأول، ولعلك تذكر رسالتى التى ضمننتها أسباب ضيقى واكتئابى. وبدء اندحارى بعد أن قمت من مرضى، أرجع إلى مادونته إليك، وأعد قراءة ما سطرته لك، لتدرك لب مقالى، وأى حد كانت عليه أحوالى؟

خطر لى أن أفارق غرفتى، أن أهرع فאלقاها، أن أقف أمامها، وإن لم أنطق أواجهها بالصمت والسكينة، لعلها تدرك عنى. لكن.. ما أسرع الشروع وأبطأ التنفيذ، حاد بصرى لحظة، وعندما عاودت النظر رأيت الإطار وغاب عنى المضمون، فتحت النافذة، هواء بارد قاسٍ، إذن فالشتاء هنا شديد. مددت البصر، لم أرها، عدت إلى وحدتى، مغمورا بالرؤية، بالنفاد، الآن يا أخى وأنا أتم تدوينى هذا أكاد أثق من رؤيتى لها قبل ظهورها، قبل انبثاقها بين شجرتى التوليب، لكن أين؟ هذا مالا أقدر على تصديده، متى؟ ذلك ما ليس عندى منه يقين. فى مدخل الفندق لم أرها، أما المطعم فكان خاليا منها، كيف أيقنت أنها تنتمى إلى جماعتنا مع أنى لم أرها إلا عن بعد؟ لا أدرى.. طوال إفطارى تعلق نظرى بالباب، لم أرها فى ثباتى، لكننا عندما اتجهنا إلى الحركة لمحتها، تتأهب لصعود العربة التى ستقلنا إلى الجولة، من مقعدى سددت البصر، قعدت بجوار

معماري من الهند، عندما استقرت حلت عندى سكينه. أمكننى
الرحيل بنظرى هنا وهناك. مطمئنا إلى وجودها قربى، أمر
بشعرها الطويل نافر الخصل، أتابع تدفق الطرقات، ما أراه
أطالعه أول مرة. والأرجح أن عيني لن تقعا عليه أبدا، أدقق
اتجاهات المباني المشيدة كلها فى أوقات متقاربة بعد وقوع
الزلزلة المهولة منذ حوالى عشرين عاما، خطوط صاعدة،
أقواس تؤطر الطوابق العليا والمداخل، الأصول النائية عربية،
تتقاطع الشوارع الفسيحة الرمادية وتستدير الميادين ممتدة
صوب الفراغ، غير أن ثمة مسافة بقيت تفصلنى عن طشقند
هذه، كنت أبحث عن شىء لم أجده، وأتربأ أمرا لا ألقاه، أما
ما شغلنى فأرئو إليها خلسة، والشرع فى الاقتراب كيف؟

ترجلنا فى الساحة الرئيسية، هواء صارم، قادم من أقاص
بعيدة، خطوت تجاهها، تمكنت من جانب وجهها الأيمن، أيقنت
أن أمرا قديما بدأ ينفذ، فى المعرض أبطأت الخطى،
وأفسحتها، اقتربت، نأيت. هى فى حركة وأنا فى حركة، كان
دنوى منها يتم خلال ديمومة، اعلم يا أخى أنار الله برهانك، أن
الأقدمين قالوا إنه لا تنفصل حركة عن حركة إلا بسكون
بينهما، وهذا يعرفه أهل الموسيقى خاصة، ونذكره نحن أرياب
المعفار، هم يتقنون تأليف النغم، والنغم لا يكون إلا بالأصوات،
وتلك تحدث بالتعاقب، بالتوالى، بالحركات التى لا ينفصل
بعضها عن بعض إلا بسكونات تكون بينها. بين زمان كل
نقرتين زمان سكون، هكذا قالوا، وأقول أنا، ذلك شأن المعمار،

فالبناء لا يتم إلا فى فراغ، والقيام فى الفراغ حركة، يبدأ من ثبات الأرض البادى ثم تتخلله الفواصل وما تلك إلا وقفات، عند طوافى حولها كنت مزفرفا، حائما، لكن لى أويقات سكونى، أولى فيها البصر بعيدا، ثم أنتنى مستوعبا ملامحها على مهل. ما وقفت عليه أغزر وأغنى مما أقدر على شموله أو استيعابه مرة واحدة، شأن من يحسو شرابا رائقا، مسكرا، فيرشفه متمهلا. متمنيا الا ينفد، لإطالة المتعة، والتمكن من القدرة، ربما نعم لهذا كله، وربما لا، غير أن ما أعرفه، أنتنى عند خروجى من بوابة المعرض، رأيته، بمفردها، يداها فى جيبى معطفها، تماما كما كانت تدسهما أثناء رواحها ومجيئها بين شجرتى التوليب، لم أتقدم، إنما دفعت من داخلى، لم أتجرا، إنما بدأ فعلى قبل قرارى، وحركتى قبل عزمى، ابتسمت مشيرا إلى آله التصوير.. تسمحين لى بصورة؟

لاح نبأ ابتسامه من شفيتها المزهرتين، مدت رأسها هنة إلى الامام، قالت برقة....

- ليس الآن من فضلك

يكن بوسعى إلا الانحناء، والانسحاب بعيدا، كلا يا أخى لم أرتد خائبا، فما لقيته ليس بصد، وما سمعته لم يكن توضيحا للحد، لم تنهرنى، لم تقطع، بل تضمنت كلماتها وعدا، أما عن تراجعى فهذا أفضل، ربما لأننى طفت ما بين عينيها، ونزلت بعينى لحظات عند قسماتها، ملامحها وثيقة الاتصال. إذا

ابتسمت مرحبة أشرق في عينيها طيف حنيني، وإذا تطلعت
متسائلة وقع التلامس بين شفثيها، والتقوس من حاجبيها، وإذا
تدفقت منفعله فكك قوس قزح ألوانه وأظهرها متعاقبة وليست
متجاورة. وعند مس الخجل تتراجع الشفة السفلى منطوية
للعليا وتعمق الغمازتان اللتان تبدوان فجأة في الوجنتين
الثريتين، الحادثين كالخبر المفاجئ.

حتى العصر عاودت دنوى منها ثلاثا، وفي كل مرة أقول
مبتسما.. لا تنسى الصورة..

فيجيء التطمين، والوعد، لكن ملامحها لم تأذن بعد. اعلم يا
أخي أنني اعتبارا من هذا العصر، من توجهي الأخير إليها لم
أعد أتحرك في المطلق، كل خطوة عندي تجاهها، وأية إشارة
من يدي هي المعنية بها. وعند أي نطق، توقع أنها تصغي إلي.
ولو بدرت التفاته مني فيقيني أنها ترقبني، ولو تحركت على
مرأى منها، أو تحدثت بقربها، أو جلست صامتا، فإنني أضمن
حركتي وصوتي وسكوني رسالة إليها لعلها تتلقاها، لم يعد
الوجود مطلقا، ولم تعد الكينونة مفرغة أو بلا غاية. بل صرت
دوارا في فلكها. من توابعها، كان مرورها يكتمل عندي،
جازت، فانت حواجز شتى، وموانع قديمة، وسنين مثقلة.
وهموما متراكمة، وأرصادا من الحزن قائمة، فكت أرسادا،
وحلت طلاس، وفسرت رموزا استعصى على إدراك كنهها
عمرا، أقول لك قولي هذا، وما من حوار بيننا اتصل. وما من

تقارب مادی بدأ. لم أعرف بعد أن اسمها فاليريا، وهذا حال
ياصاحبى جديد، سأبسطه لك وأشرحه، على أفسر الأمر
لنفسى قبل أن يكون لك، هذا حق يا أخى والله، فبقدر ما هى
محدثه، بقدر ما هى قديمة، موهلة، كنت مجروفا صوبها، وما
من صاحب أو معين..

قرب الغروب، قبل رحيلنا بساعتين، قاصدين بخارى، أقيم
حفل صغير، خطب البعض، وتكلم مهندس من بيرو عن
الصداقة بين الشعوب، وتحدث البناء الهندى بلغة الأوردو، وقام
صاحبى فتكلم عن الحضارات القديمة وعن المتجهين صوب
المستقبل، التقط آخرون صوراً، لكننى كنت نائياً، ما تم ترتيبه
وما قيل ليس إلا الإطار الأتم لوجودها قربى، اكتمل انفلاتى
من الزمن بعد أن صار لى توقيتى الخاص القادم منها، شيئاً
فشيئاً تصبح محور تقويمى، ولب شدى وجذبى. حتى إذا
انتهت الكلمات. دخل شابان من أهل الناحية، عيونهما أسيوية،
وصمتهما باد، يحنو أولهما على طنبور. ويجلس الثانى إلى
سنطور، اثنان يا أخى اثنان لا غير، لكننى لم أتصور قط أنهما
سيفجران حزناً معتقاً، ويستنزلان أنينا كونيا بمجرد أن يجرى
الأول قوسه ويداعب الثانى أوتاره، أصغيت إلى خلاصة
الشجى المتوارث، إلى لب العويل النائى، إلى قدح الشرر الناتج
عن عدو خيول التتار الغزاة، إلى الأسى على بنيان قام ثم
تهدم، وفراق قسرى جرى، وتباعد آلاف عاشوا معا. هذه
مناطق عبور، أقدام شتى دهستها. اعلم يا أخى أن ما انقضى

عند الآخرين باق داخلى وإن استقر. مالم يره غيرى أوليته
 عنايتى، ولان هبوب الصبابة بدأ، لأن النذر لاحت لأنها على
 مقربة، لأننى على مرأى منها، اجتاحتنى نسيمات البدايات، ملت
 تجاه العازف، مورجت يدى اليمنى وأشرت باليسرى، حتى إذا
 جلا عازف السنطور أوتاراً، وفض أسراراً، وأطلق نغيمات طال
 احتجابها. تحرك على الشجن المكوم فى أغوارى فتأهبت
 للإقلاع، فلم يعد ما يحيطنى بقادر أو كاف أن يحتوينى، كدت
 أو شكت، لكن ما جعلنى أحجم إلى حين، انسياب بنية قدت من
 أطياف ورؤى، منمنمة، دقيقة التكوين، عصفور تخلف عن
 سريره، أو خلى حرد بعيداً عن أهله، واحدة من بنات الأوزبك،
 متدثرة بغلالات من زمن سحيق، لم تفد علينا من مكان، إنما
 جاءت من حقبة تكلوها أخرى حتى حطت فى وقتنا تبتسم
 للكافة فى وقت واحد، فهى هنا وهى هناك، هى عندى وعندها
 وامامهم، مست يمين القاعة ويسارها فى وقت واحد، بسطت
 حضورها وللمته، لم يكن رقصها أداءً حركياً تلميحا
 وتصريحا. شرحا ومعنى، على شفيتها ابتسامة فرحة بنجاة
 من أهوال تاريخ سحيق، كان يمكن ألا تفيض حيويتها تلك لو
 أن أحد أجدادها الأقدمين أبيد فى غزوة. أو فنى فى وباء، هذا
 حالى أيضا. فلو لم يتعاقب أسلافى لما وصلت إلى لحظة ألقى
 فيها تلك البنية. طق عندى شرر الفرع، البهجة الغريبة لأسباب
 شتى. لإدراكى أننى على وشك الخروج من جب سحيق ألقىت
 فيه منذ مرضى وما أورثنيه من إعياء وتدقيق فى الحساب.

ولعلك تذكر ملامحى عندما عدتني مرات يا أخى، حماك الله
من السوء وأقصى عنك النوائب والمحن. ما أصفة لك لحظات
لم أعد لها العدة. ولم يخطر ببالى المرور بها عند بدئى الرحلة،
إلا أننى عزمت على دفع نفسى فى خضم اللجة مع جهلى
المطبق بالعموم، طافت البنية الأوزيكية ملامسة اليايسة بأطراف
أناملها، حتى دنت وتمهلت وكنت أول من أشار إليه ليشاركها،
قمت غير خجل، بسطت حضورى وأشهرت على الملأ وجودى،
تبعتها فكنت الظل الوارف لأضل بديع. درت حولى، حتى إذا
وقعت عينى على من أحوم حولها، وأتقرب من مشارفها،
سكنت، أو قل أخذت عنى، هى متطلعة إلى، مبتسمة، متجهة
إلى بلامحها المتسقة الصريحة، تجاور الرجل الهندى،
ومهندساً، سويدياً، تتوسط قارتين، حزمت أمري، للممت حالى،
قطعت المسافة الفاصلة، خطاى غير معهودة أو مسبوقه لا منى
ولا من غيرى، حتى إذا واجهت ملامحى قسماتها، ولم يعد
الفراغ الذى يفصلنى عنها كافياً إلا لمد يدى إذا شرعت فى
المصافحة، فردت قامتى تأهباً، وتمنيت لو أن جذعى ساعدنى،
لو أن لياقتى واتتنى حتى تبلغ انحناءتى حداً لم يبلغه إنسان
قبلى، وعندما اعتدلت حددت مباشرة إلى عينيها، فى وجهها
الذى اكتسى خجلاً، رصدت طيف سرور فاستبشرت، هكذا
بدأت مراسيمى، وأنبأت باكتمال أوراق اعتمادى، ملامحها
الرحبة لم تحو استنكاراً أو نفوراً، غير أن دهشة خفيفة بدت،
إلا أن ما أعاقنى عن التتمة تصفيق القوم، يحيون إقدامى، لم

أت أمرا فريا، إنما أسارع إلى المجاهرة، فالزمن غير مساعد، وعلى قدر المدة تكون العدة، ولو أن أيامى ممتدة فى تلك الديار لتمهلت الخطى، لكننى الآن مرغم، فما يمكن الإفصاح عنه خلال أيام وأسابيع على إنجازها فى دقائق. وتلك الروابى التى فى حاجة إلى أوقات طوال لعبورها يجب اجتيازها فى لمح البصر، عدت ألزم مكانى، مال على صاحبى، أو قل أحد أساتذتى. قال إننى كنت صادقا فى تعبيرى، تطلعت إليه، ومنى إليه تدفقت المودة وزهت أسباب الصلة. تأهبنا للانصراف، لاحظت توجهها إلى أقصى الغرفة، قعدت إلى بيانو عتيق، اختبرت أوتارها، بعثت أناملها أنغاما متسقة، إلى جوارها وقفت اثنتان من زميلاتنا، والله يا أخى لم أرهما لحظة العزف، لم أتنبه إليهما إلا فيما بعد، بعد إيابى من رحلتى، وتأملى الصورة، اكتشفتها، عجبت، أين كانتا؟.. ولكننى أدركت أننى لم أر إلا هى، ولم يستوعب بصرى إلا طلاتها وطلعتها، ذلك أننى أشرعت آلة تصويرى، لم تبد ممانعة. إنما مال وجهها ناحيتى، فأسفرت عن زاوية لم أعدها منها أثناء تطلعاتى، أظن أنها قالت: تعلمت العزف فى الثامنة. رداً على استحسانى، وأظن أنها قالت: الموسيقى لازمة للمعمار..

اعلم يا أخى أننى أثرت الظن إذ يصعب على التحديد، إذ لقيت نفسى فيما بعد أهفو وأحن، أستعيد أموراً لا قدرة لى على تبين كيفية وصولها عندى، فبعض مما عرفته عنها أو منها أدركته بالحوارة، أو بالنظر، بالنطق أو الصمت، بالإيماء

أو التصريح، حتى الوقائع تغمض على، ومن ذلك معرفتى لها عند ظهورها بين شجرتى التوليب، إذا أستعيدها الآن، أوقن أننى كنت أعرفها من قبل، وأننى لم أنجذب إلى مجهولة منى، لكن متى وكيف؟ هذا ما لا ألقى جوابا عليه، صدقنى..

مما خبرته يا أخى أن العلاقة تفيض بما لا يدخل فى نطاق الوعى أحيانا، خاصة إذا بدأ التواصل، وشرع فى التوالج، عرفت ذلك، جرى فى أيام بعيدة أن جمعتنى الظروف ببنية هيفاء، دقيقة المحيا، أجهل لغتها كما لا تعرف لسانى، عدا كلمات معدودات من الفرنسية، دامت الصلة أياما سبعة، فى نهايتها كنت ملما بتفاصيل دقات عنها، وكانت تعرف عنى، هذا ما أحتاج إلى فيض لتفسيره، وإنى مورد أمرا لطيفا أقصه عليك... إذ حدث أن وقفت يوما فى صحن مسجد الناصر قلاوون مشغولا بالمعاينة، عندما دخل رجل أجنبى يتحدث الألمانية، ولما كنت أجهلها لم أقدر على المجابة، إلا أن عاملا أميا من أهل الناحية، توقف بدافع من فضوله، أو رغبة فى المساعدة، فوجئت به يحرك يديه، ويشير بأصابعه، ويهمهم، ثم ينقل إلى وعنى، أخبرنى عن هوية الرجل، واستفساراته عن المبنى، وهذا مما حيرنى، حتى جربت فلكيت الوسائل شتى والسبل عديدة. أرجع إلى ما أنا فيه، إلى من صارت محورى ولب قصدى، فأقول إنها جاوبتنى بما قلته بعد استحسان عزفها. خرجت من المبنى، لحقت بصاحبى. استنشقت هواء باردا، حوائجنا فى السيارة، اكتمل تأهبنا للإقلاع صوب

بخارى، إلى الزمن المطوى، لطالما قرأت عن مدارسها، عن
قيامها وأفولها، ثم انبعاثها، طالعت صور قبايها، وأسواقها،
وعقود مبانيها، وتصميم قلعتها، أمضى إلى المدينة العتيقة وقد
بلغت مدى بعينه، ألم تجاوبنى، ألم تواجهنى باسمه لاح منها
مالا يمكننى إغفاله، أليس بداية الضوء وهن؟ رسول الغيث
قطرة، أول السعى خطوة، إذن، لا يبقى إلا العزم، ودعاء
بإقصاء بغتات المقادير..

مساقي المسلسل

... يا أخى، أجي الله توقا من يحبك إليك. وقربك ممن تهوى،
وقوى يقينك، وأعانك على سعيك، اعلم أن رحيقاً عذبا
سلسبيلا بدأ يسرى عندي، وإنك لعالم بحالى القديم، وعندي
الرجبة أن أحدثك عنه، لكننى مرجئ ذلك، فلأن الظهور اكتمل،
على المتابعة، اعلم يا صاحبي أن اليوم الذى شهد تمام تجليها
فى تلك المدينة الأسبوية، اقترن بحدث، إن بدأ منفصلا إلا أنه
متصل. عند بدء رحلتنا، وقبل ديارنا، جاءت ابنة صاحبي
مودعة، انتحت بى ركنا وأسرت أمرا، أخبرتني أن عيد ميلاد
والدها سيحل أثناء سفره، سيكون هو فى ناحية وهى فى
ناحية، رجتنى أن أنوب عنها فى تقديم زهور إليه. إن هذا
سيسعده جدا، قلت لها ألا تقلق، إنه ليس فى موقع الأستاذ

منى.. إنما الصاحب، وهذا لم يتم إلا بعد سنوات طوال. تقلبت فيها الأمور، وشهدته يخوض حرباً ضد لصصوص المقاوله، ومن يفسدون الذوق السليم، لا محرك لهم إلا جشع الربح، غير عابئين بأحوال العباد. وللصحة عندي يا أخى منزلة أكيدة، كما أننى أضمر له محبة، فهو ممن مدوا لى العون وقت الشدة، ويخلاف ذلك هو ممن ثبتوا فى الطريق، ليس ممن مالوا مع الهوى أو حادوا، ولهذا تفصيل يطول، أقصر عنه خوف الإملال. عند بداية نهارنا فى طشقند سألت مرافقتنا الروسية عن مكان لبيع الزهور، أفصحت عن غرضى، وعدت أن تدلنى، نصحتنى بتقديم عدد فردى، خمس زهرات أو سبع، قالت إنهم يتفعلون بذلك فى هذه البلاد. أما إذا وعى الطرف وحل الحزن فتكون الأعداد زوجية، وهذا غريب على، أثناء تجوالنا قادتنا إلى ناصية تصطف عندها مناضد فوقها سلال الورد، وأصص من الخزف، مددت الخطى، ابتسمت المرأة العجوز، تغطى رأسها بمنديل نقوشه شرقية. تناولت سبعة، فى نفس اللحظة تقدمت مرافقتنا، وعندما لمحنى معمارى من الجزائر العربية خطأ صوب الزهر، لم أعد بمفردى، أبدى الرجل تأثراً، تساءل عمن أطلعنا، ثم تدارك قائلاً: لابد إنها ابنتى. احتضنته مقبلاً، تبعتنى الروسية وهى مهندسة ممن يقمن على صيانة وحفظ المسرح الكبير، وأعقبنا الجزائرى، أما بقية القوم فوقفوا يرقبوننا باسمين، حتى فرغنا، فتقدم نحو صاحبى.. الكولومبى، والهندي، ورسام سنغالى، أما هى فقد أقبلت

متسمة، حيث وهنأت، كان ذلك أول النهار فى طشقند، ومع
 -سالم المساء حللنا بخارى، تبدل الوقت، بحساب الساعات
 ينقص واحدة عن طشقند، وثلاثا عن موسكو، وأربعا عن
 قاهرتى، أما بمنطق الدهر فلا حد، بخارى يا أخى لها رجوع
 عندى قديم، من المدن التى ظننتها بمنأى، خارج المتناول لشدة
 البعد، وانقطاع الظرف المساعد، كما ارتبطت عندى بجمع من
 القوم النابغين، ونوع محبب إلى من الأبسطه النادرة، ألوانه
 أصلها واحد، الأحمر ودرجاته، العقيقى والياقوتى والشفقى،
 أما زخارفه فهندسية. مستطيلة، متقاربة، متباعدة، شأنى مع
 ذاتى، مع من أحببت، بها شبه من نوافذ تعد ولا تفصح، أما
 الإطار فمحكم كالظروف المقيدة، نزلت بخارى، فجلت بنظرى
 عبر فراغاتنا، كان حضورها مدججا بالماضى، جئناها ليلا فلم
 تكن المعالم بادية، لا تفصح المدن عن مكنونها للغريب فى
 العتمة. تجدها مضمومة، غير منبسطة، حتى إذا انفردت
 بنفسى فى غرفتى، وتطلعت عبر الشرفة كدت أوقن أننى جئت
 الديار يوما، وأننى تنسمت هذا العبير الصحراوى زمنا لم
 أعشه، كدت أستسلم لما أوشك على الإصغاء إليه، غير أن
 حضورها القصى دعانى، ولم يكن بوسعى إلا أن ألبى. كنت
 نادما على أية دقيقة تضيع دون أن يقع عليها بصرى، أسرعت
 إلى المطعم، لمحت صاحبى قاعدا وبجواره مرافقة الجم
 والمعمارى الجزائرى، وأستاذ فى هندسة الجسور من سيد،
 جلت بنظرى لأحدد مكانها، لم ألمحها، غير أنها لم تتأخر،

ولجت القاعة مبسقة فارهة، لا ترتدى المعطف الرمادى الذى يخفى معالم وجودها الحسى، ترتدى قميصا من الصوف، تتعاقب ألوانه كموج البحر فى مثلثات متداخلة، أحمر صريح، وأبيض ناصع، وأسود قاتم، القميص فضفاض ينسدل على كتفها، أما بنطلونها الأخضر القطيفى المضلع فيخفف من انفلات جسدها الأنوثى، بلغنى حضورها الحسى القوى على البعد، وإن لم أقف على شواهد، ولم أمس تخومه، قعدت بالقرب، يجاورها الهندى، ومعمارى من بيشاور، راحت تتابع رقصا عذبا، وغناء شجيا يمت إلى ماضى الناحية، كنت أحوم وأحط عندها، إما بنظري أو حواسى الأخرى حتى جرى مالم أتوقعه، توقف العازفون ومالت المغنية الشابة هامسة لأحدهم، وعندما استدارت لتواجهنا، فوجئت بلحن يمت إلى ربوعنا، أغنية شائعة تنادى عاشقا باسمه، إلا أنهم غيروا، فكان اسم صاحبي بدلا من اسم المحبوب، غمرتنا بهجة إنسانية، وقفت محيا مرافقتنا التى دبرت ذلك. بانث السعادة على وجهه وكان ذلك من ألطف ما مررت به، فى غمرة الود بسطت يدي داعيا، ردت بابتسامة، ابتسامة لم أعهد مثيلا لها، إن جاز الوصف فهى رحية، دالة، مدلة، عند طلوعها من أفق ثغرها تضىء وجنتيها، ثم تترقرق فى عينيها، وكافة ملامحها وتنتقل إلى ما حولها، يشع عبيرها، فيه قبس من سر تدفق هذه الحياة الدنيا، قمت، تقدمت منها، أشرعت ودى فلبت، نظرت إلى رفيقيها، قاما يتبعانها، خطت فصافحت، اتسعت الجلسة فشملت،

واجهتني فأتيت لي طول التملئ، أدركت يا أخى أننى على وشك
 الاقتراب من مشارف لم يسبق تعيينها، لكننى متأهب لحط
 رحلى. لإقامة مضاربى، للخروج على الناس بادئا عرضى،
 كنت موقنا أن لون الدماء يتغير فى عروقى، وأن روافد نهر
 قلبى تتخذ مسارا جديدا، كذا نبضى، وحواسى كافة، هنا لا
 أجد مفرا من الوقفة، حتى أطلعك على بعض مما وددت ورغبت
 تفصيله لك، فكثير من أمورى لم تحط بها علما، بعد أن باعدت
 بيننا الظروف زمناً، واغترب كل منا، أنت فى سعيك، وأنا فى
 مقامى..

تفصيل

.. اعلم يا أخى، جذبك الله المحن، وأقصى عنك الشدائد، وخفف هجيرك. أن ماء فيضى كان قد بدأ غيظه منذ زمن، وأن شحاً أدرك دفتى، وأن أوصالاً تقطعت عندى، وكثيراً ما قرأت شكواك من الغربة، ولكنك لم تدر وأنت تبثنى همك أننى مغترب مثلك، وأوعر النفى ما كان فى محل الإقامة، وأوحش الوحدة ما كانت فى الجمع. أقول يا أخى إن الأسباب تجل عن الحصر، منها ما تعرفه، وما تجهله، منها ما سأذكره لك، ومنها ما لا أقدر على تقييده، تكفينى الإشارة، تعلم يا صاحبى أن الظروف لم تكن قط سهلة منذ البدء، وقد ربينا معاً، ودرجنا، وأحببنا وخططنا لتحقيق الحلم. لكن الظروف لم تكن مساعدة، لست بحاجة لأن أحدثك عن أيام دراستنا الجامعية، وهذا التدفق، وتلك الحيوية، كان الحذر نائياً، والبوح من خصالنا والمجاهرة، والشعور أننا نتحمل مسئولية إصلاح هذا لعالم، وأن مصائر شتى أقدارها حول أعناقنا، وأن أهلاً لنا ير قادرين على إسماع أصواتهم لمن بيدهم النهى والأمر، حل والعقد، أثرتنا أن نوب عنهم، لن أستعيد أيام المعتقل، لما أفضت فى سرد أحداثها. وما جرى لنا فيها وما سيناه من وحشة وعزلة، وإرغام قسرى لنفرض أختامنا، هل صدقنى إن قلت لك يا أخى إن أيام السجن تلك تهون عند كرها إذا ما قورنت بأيام تلت كنت فيها حراً، طليقاً، لا أسعى

على هواى داخل موطنى فحسب، وإنما أسافر إلى بلدان
شتى، أيام إدراكى بأن ما يجرى مهول، وأن التدهور يتم
بأسرع مما نتصور، وأن التغير إلى الأردأ والأسوأ يلقي
المساندة من قوى تفوقنا بكثير، هذا مع وقوع الخلف والمعاكسة
بين من قدرهم التصدى والمحاربة، وأصعب ما يواجهه إنسان،
إن يلقي نفسه وحيدا فى مواجهة عتو طاغ، ولا مبالاة جارفة،
وفساد شامل، فيدرك ولا يفعل، يعى ولا يتحرك إلا بقدر إن
استطاع إلى ذلك سبيلا، والله يا أخى لم أتقاعس قط، إذ شاء
حظى واختيارى أن ألزم الصفوف الأمامية، عند الأقاصى،
وعندما بدأت كان الواقع كله ميدانا لى، حتى حلت سنوات
العقد السابع فتدنت الأحوال، وتقهقرت الأمانى، وتقلصت
الساحة حتى ضاقت فأصبحت ذاتى، صار همى أن أقيم
المراسد والقلاع على عجل، حتى يبقى الجوهر سليما، والنواة
بمناى، كلبنى هذا الكثير يا أخى، حتى جرى لى ما سمعت أنه
جرى لآخرين وظننت أنه لن يطالنى قط، وإنى لقاص عليك
واقعة لم أخبرك بها، ولم أفصلها لك. ربما لأن الفرصة لم
تسنح لقلة لقاءاتنا. وتباعد المزار بنا، تعرف أننى خبرت عللا
كثيرة، وأمراضا، غير أن ذهبنا إلى الطبيب لم يكن إلا إذا دنا
المرض من حد الخطر، بل كنت إذا سمعت بصاحب أو غريب
مضى إلى طبيب يداوى النفوس أسخر فوراً. هل تدرى أن
الأيام مرت بى حتى سعت ذات غروب إلى واحد منهم. كان
ذلك قبل سنوات تسع من اكتمال ظهورها فى مدينة طشقند
النائية بين شجرتى التوليب، فى هذا العام، ألف وتسعمائة
وثمانية وسبعين، ضاقت على الأرض بما رحبت. وبدأ الوضع
الجاثم أصعب وأثقل من أن نبذله فى ملح البصر كما نرغب،

فى تلك الليلة كانت الأحوال كثيرة على، والظروف متكاكئة، كنت بين النوم واليقظة عندما قمت فجأة قاعدا فى سريرى، اضطراب غريب فى أمعائى لم أعده وأوعر الألام ما كان غير مسبق. بدأ هبوط لين. دقيق. لكنه مخيف، مدجج بالندى، بدأ ارتجاف أوردتى، ونفور نبض قلبى، الأدهى والأمر وعيى المكتمل أن النهاية ستتم بعد دقائق، بل قل لحظات، وهنا لى وقفة، فريما حان أجلى بعد خمس ثوان من تسطيرى هذا، لكننى مادمت لا أدرى فما من جزع أو خشية، أما لو علمت الآن أننى سأقضى بعد خمسين عاماً كاملة فى يوم بعينه وساعة محددة، أؤكد أن حالى سيصير نكداً، سأحصى كل لحظة ما تبقى، أقول قولى هذا وأنا واثق بأن ما تبقى أقل مما انقضى، وأن ما صار ورائى أطول مما سألقاه أمامى، وإنى لمحدثك يوماً عن القضاء والقبض فى رسالة أفردها خصيصاً، إذ شغلت بالأمر جداً منذ هذه الليلة، أقول يا أخى إن الإنسان يظل مطمئناً، راضياً، حتى لو أن أجله سيحين بعد دقائق. لا تدرى نفس ماذا تكسب غداً، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت؟ وهذا من أجل النعم فانتبه!

دهمنى فزع، صار حضورى كرياً، غزائى فزع أكبر، تزايد وعيى بأن ما تبقى لى مجرد ومضات، أننى سأقبض هنا، أن زمانى انتهى، وهنا بزغ عندى الهرب، أن أولى فى الأرض لعلى مفلت من اللحظة، مع تمام علمى ويقينى أنه يدركنا ولو كنا فى بروج مشيدة، فكان حالى مثل الرجل الذى هرب من الموت إلى الهند، وتلك حكاية طالعها فى كتب الأقدمين، وإنى لقاها عليك..

حكاية دالة

يحكى أنه فى ضحى يوم، كان سيدنا سليمان يجلس على عرشه يحيط به الإنس والجن، عندما دخل عليه رجل من رعيته مفزوعا مضطربا، قال لسيدنا سليمان الحكيم:

- «الحقنى، أنقذنى يا مولائى».

تعجب سليمان متسائلا:

- «ماذا بك ؟»

قال الرجل إنه كان فى الطريق عندما رأى عزرائيل ملك الموت، نظر إليه شزرا وبدا حائقا، غاضبا، منذرا بالشر، تملكه رعب، أدرك أن أوانه دنا واقترب، لذا يرجو سليمان الحكيم أن يأمر الريح بحمله إلى الهند، إلى أقصى أرض هناك، حتى ينجو من الموت.. رقى سليمان له. أمر الريح فحملته فى إغمضة عين إلى الهند.. بعد قليل ظهر ملاك الموت فعاتبه سليمان قائلا:

«تسببت فى غربة أحد رعيتى ونأيه عن وطنه، لماذا نظرت إليه
غاضبا عندما قابلته، لماذا أرجفته؟»

قال عزرائيل..

«لم أنظر إليه غاضباً، إنما نظرت إليه متعجباً، لأن الله أمرنى
أن أقبض روح هذا الرجل فى الهند، فلما رأيته تعجبت.. كيف
سيصل إلى الهند وأنا مأمور بقبض روحه بعد لحظات؟..»

رجعى إلى ما انتقطع

أنا أرى في كل شيء ما كنت أرى في كل شيء

– فزعت!

هرعت إلى أقرب باب إلى يؤدي إلى الشرفة، اتجهت إليه،
وعندما شرعت في اعتلاء السور أدركتني والدتي، أيقظها
حسها الأمومي وما أحدثه فتح مصراع الشرفة من ضجيج،
كنت أبغى الوصول إلى الطريق بأقصر وأسرع وسيلة،
حاشتني، صرخت فدب في وعي الروح الحافظة، انشيت إلى
الداخل مبتلا بعرقى مرددا..

مازلت أحياء.. مازلت أعيش..

في عصر اليوم التالي قال لي الطبيب المداوى إن القلب
سليم، وإن علاج العلة يختص به أطباء النفوس، هكذا سعت

بقدمى إلى أحدهم، أصغى، دون ملاحظات شتى، ثم أطلعنى على ما خفى على، ما ربى أعراض اكتئاب شديد جاثم على. وصف لى أدوية ونصحنى بخطة، أن أغير مسارى، أن أبدل الإيقاع، هذا ما قاله لى، غير أن ما أدركته تلك الليلة، ما لم ينفذ إليه هو، ما لم أفض به حتى لأمى، ما لم أبح به من قبل، وعيى أن احتضارى بدأ هذه الليلة، علمتنى التجربة والاطلاع على أحوال الآخرين، أن البعض يبدأ احتضارهم فى الثلاثين أو دون ذلك، وقد يمتد بهم العمر إلى الستين، إلى السبعين، وفيما تلا ذلك عرفت أعراضا شتى، نمت أحيانا وعندى يقين أن النهار لن يطلع على، قمت فزعا من نومى، خشية الموت ودمعى نازف، عبرت طرقا أراها بعينى من سيبقى بعدى فى هذا العالم، أشدت عمائر لم أثق بأننى سأتمها عند وضع أساساتها، وعندما اكتمل يتمى بفقد أمى، انهار حاجز كنت أعده حاميا، يحول بينى وبين إدراك العدم، وعندما طق الأغم وسد وريد ساقى، قال لى الطبيب، إنك محظوظ، كان ممكنا للجلطة أن تتوقف فى موضع أشد دقة، قال إن هذا بمثابة إنذار، طلب منى ما يستعصى على، ألا أنفعل، أصغيت ولم أعلق، وخلال اضطجاعى أربعين يوما أيقنت أننى قطعت شوطا، نال منى النصب، هدفى تعب، نأيت عن الأصحاب، وندرت أوقات الرفقة، وشحبت المحبة، وهذا كله من علامات عصر انقلبت فيه الأحوال وصعب عيشى، وظننت كساد سوقى، وفساد متاعى، واعتراض ركبى، وانقضاء الأكثر وبقاء الأقل، صعب حالى، ووعر ظرفى وبقي الأمر فى شدة حتى هذا الفجر، حتى مطلع النهار فى تلك الأقاليم الأسيوية، وبترائى الموضع هذا واجهت إشراقها، وحضورها الفتى، البهى، لعل وعسى!!

إنصاح

اعلم يا أعز صاحب - رقق الله خواطره - أنها واجهتني.
شغلت فراغا أمامي بضياؤها، شددت رجال بصري صوب
ملاحها، وعمق حضورها، محاولا التمكن من نضارتها،
وغرابة عينيها الرحبتين، الطاقتين، النورانيتين، حيث يتطهر
فيهما الضوء ويشف ويرق ويرتد إلى عناصره الأولى، حتى
هذه اللحظة لم تكن تعرف عنى شيئا، كانت تجهلني، لا من
حيث صفتي واسمي، لكن جوهرى أعنى، وإن خمنت إدراكها
لما يتطاير صوبها من شررى، من وهج وألق، كنا ما زلنا فى
غمرة احتفالنا بصاحبنا، جاء رفاق الرحلة. تضاموا، صرنا
جمعا، أنشدوا فأنشدوا، لوحوا فلوحنا، شاركت من بعيد وإن
كنت على مقربة، كان انشغالى يتزايد، كنت مشرعا حواسى

لإدراكها، لاستيعاب جلوسها، تراجعها برأسها المائل قليلا، ابتسامتها التي تطل فجأة ساعية صوب العالم بأسره، فما البال لو خصت شخصا بعينه، سلكت طرقا شتى صوب ابتسامتها تلك، تارة خلسة، ومرات مباشرة، علانية، كنت فى عجلة، فالوقت محدود، وعندى حشد لابد من دفعه وإيصاله فى فترة وجيزة. أما الآن فهمى الأول إعلان ولائى، وتبليغ فيضى..

اعلم يا أختى، أننى عند إطلالة أفراحي تتحرك أشجاني.. تسألت إلام سيستمر هذا؟ إلى متى وزمن الرحيل محدد، لم يتبق إلا أيام معدودات، بل أمعنت فتسألت، كيف ساستعيد هذه اللحظات فيما بعد؟ وهل سأقلب عليها حسرات؟ كيف سيعصف بى شوقي، وكيف ستيكون وجدى؟ هذا حالى أرى النهاية فى البداية، والأقول فى البزوغ، والغروب عند بدء الشروق، لا لحظات حميمة تأخذنى عنى، ولا اندماج كلى فى عمل يشغلنى عن جوائى، فوجئت بصاحبى المحتفى به يقوم واقفا، يدعوها إلى رقص فتلبى، تمضى أمامه، متأودة، لها رسوخ، يتدفق منها كيان بآتمه، لم تكن تسعى، إنما تفيض، لم تكن تخطو، إنما تهمس لليابسة بموطئ وجودها الحسى، تابعت خطوهما حتى ولوجهما الطلبة، ملامسة صاحبى لكفها، ابتسامته ساطعة، عنده بشارة دائمة وحماسة متأججة، يسعى الطلبة إلى محاضراته لجاذبية إلقائه، وحرارة خطابه، وجزل عباراته، يتجاوزنى عمرا بما يقرب من خمس قرن، غير أنه فى حركة عنى، متدفق الانفعال بآديه، صريحه، ينفذ إلى

الأخرين عبر كلماته، على نقيضى، إنما يكون ذلك عندى بصمتى، بانفجاري المفاجئ، أتابع خطوهم، تلاقيهما، تباعدهما، تحاور جسديهما، يميل المعماري الهندسى فجأة، هامسا.. «معجب أنت بها؟».

فى صوته النحيل ود، رغبة فى القربى، لم أراوغ، أومأت، قال باختصار دال، شأن من يبصرنى، من يطلعنى على خبايا لأقرر، لأحسم خيارى، قال إنها فى الرابعة والعشرين، متزوجة حديثا، تحب زوجها، إنها متخصصة فى ترميم المباني القديمة، صمت لحظات ثم قال، إن المرافقات كلهن ينمن فى حجرات متقاربة، كل منهن بصحبة زميلة لها. أفضى ثم تطلع إلى، إلا أننى لم أعبأ، فما أتأهب له، ما أشرع فيه لن يدركه من يعرفنى، فكيف بمن يجهلنى، عندما عاد صاحبى المحتفى به. مال على هامسا:

- «ادعها للرقص..».

تطلعت إليه مضطربا، كأنى خشيت أن تكون سمعت اقتراحه مع أنه أفضى إلى بلغة لا تعرف منها حرفا، إننى لا أتقن الرقص فكيف أجرو. فكأنى مقبل على ارتداء لباس غيرى، عاود صاحبى الهمس..

- «هذا لا يليق...».

أعنى أننى من جهة، وهى من أخرى، أننى قادم من زمن غير زمنها. ميراثى مختلف، بوجهها تبدو فى بداية، أما مفتحتى

فقد أغلق منذ حول ناءٍ، هي في إقبال، وأنا في إدبار، هي في قلب الراحلة، وأنا متعثر الخطى، يمكن أن أتخلف في أية لحظة، فأية كهولة مبكرة نالت مني، وأية شيخوخة أدركتني قبل الأوان، في هذه اللحظة انتبهت إلى تطلعها صوبي، بدأ حضورها مختلفا، مغايرا لما كانت عليه منذ دقائق، إنها مترقبة، متوقعة، كأنها مشرفة من عل، انفراجة شفقتها لا تلحظ، أما أفقها فرحب مضيء ..

- «أنت مخطئ إنها تنتظر..»

بما أنني اعتبرت وجودها محطى، وشرف غايته، فلماذا لا أسلك الدروب كلها، ما أعرفها، وما أجهلها، فلاتغاض، أتخفف من أثقالى، فالأعد ترتيب مكنونى. فلابسط ما تيسر من أمرى، قمت واقفا..

- «أندعونى؟».

جاويتها بنظر رق فشف فدل فأفضى..

- «إذا سمحت..».

بسطت يدي، تقدمتني، عندما دنوت، لم المس صوف قميصها إنما بدأت أتشم مشارف وجودها الحسى، منه تسريت تجاهى إشارات وإيماءات، أثق بأنها لا تعى من أمرها شيئا، كما أن تفصيل القصد منها مبهم وإن أدركت محصلته النهائية، بدأ القرب، فلما ضاقت المسافة بينى وبينها.. وصلنى

من أنفاسها بريد مفوض. غير ذى طوى. ينبئ القاصى حتى
 بعبيرها، فما بال الدانى المتلف؟ منها بدأ سنّها لم أعرفه عند
 جلوسها فى مواجهتى، وحضور مغاير لما طالعتّه منها عند
 سعيها اليوم فى بخارى، أعلم يا صاحبى، أننى إذ أخط لك
 هذا الآن، إذ أستعيد الشوارع العتيقة، فلا أراها إلا مقترنة
 بها، هى فى البؤرة، ولب المركز، أذكر امتداد الصيارفة القديم
 المبانى على جانبيه، وتوالى القباب، فلا يتكشف لى منه إلا
 بمقدار تتابع خطاها، وإذا توقفت تراجعت برأسها، وهففت
 شعرها الجميل، فإن رؤيا ذاكرتى تتوقف معها، تجول صوب
 ما كانت تنظر إليه، حتى إذا خطت فى السوق المغطى تبعتها
 خواطرى، وشرعت فى ملاحظة البنيان، إذ أستعيد مدرسة مير
 عرب التى تقّت زمنا طويلا لرؤيتها، والوقوف على معمارها،
 أراها بداية عند مدخلها، تلج إليها بقامتها السامقة، تتمهل عند
 الجدران المنمنمة فأتهمل، ومن مركزها أرحل هنا وهناك، أما
 الزاوية التى اختارتها لتتنظر منها إلى مئذنة كش الصاعدة إلى
 ذروة الفراغ، صوب لب الأعلى. فنفس الزاوية التى أستعيد
 منها مرأى المئذنة الآن، المئذنة وهى متواجهان، وما بين عينيها
 والبنيان المتلف حوار وخطوط اتصال، أما الساحة التى يخيم
 عليها هجير قديم، وفراغ خفى. فتوشك أن تردد أصدا
 الأقدمين الذين عبروا، وتوقفوا هنيهات أو حقبا، الذين قدموا
 آمنين، أو الذين هرعوا، أو الذين جاعوا عنوة غازين، ومنهم
 سيد المجتاحين، جنكيز الذى لا أدري من أية زاوية تطلع إلى

مئذنة كش راكبا فرسه، قبل أن يستبيح المدينة ويطلق فيها
جنده فيخربوها، فكان هذا كله يا أخى لم يصل إلى زماننا إلا
لتقف عليه هى، ولتقع عليه عيناها، أما مدرسة مير عرب،
فبرغم بهائها وسموقها فكانت تنقص عنصرا، لم يكتمل إلا
بوقوفها فى باحتها، وتأملها المتمهل للنقوش، والآيات،
والعبارات، وانتظام الأبيات، فكان الذين صاغوا التصميمات
فى الحقب البعيدة، الذين أشرفوا على تشييد تلك العمائر،
استطلعوا النجوم وأهل الخبر فأنبئوا فى حينه بمجىء تلك
البنية ذات يوم، فراعوا ذلك، وانتبهوا إلى العنصر الناقص،
حتى إذا وفدت إلى عالمنا، ونمت، وشبت، ورحلت، اكتمل
البنيان، وتضافرت العناصر، لو أنك بصحبتى وأشهدت
تجولها فى القصر الصيفى، انثناءها عند المنحنيات، وسماحة
ملامحها عند نظرها النقوش لأيقنت أن المكان لم يشيد إلا
لسعيها هذا. ولما خطر لك ما أظنه سيجول بذهنك لحظة قراءتك
هذا، أنى مبالغ، أبداً يا أعز صاحب أبدا، اعلم يا أخى أننى
فى حلبة الرقص طاف بى ما جربته. ذلك الترقب الذى يلزمنى
عند جوازى عبر مداخل العمائر القديمة، والممرات المؤدية،
حيث الصحن الفسيح بعد الممر المدهلز فكأنه الفرج بعد
الضييق، أو اليسر بعد العسر، كنت أدع نفسى فى مساجد
بخارى لأرصد توالى المشاعر على خاصة عند دخولى، كنت
أشرع حواسى لالتقاط روائع المكان، فكل معمار رائحته
الملازمة، التى تمنحه خاصيته، وخلال هذا كانت هى متداخلة

بشتى العناصر، انبهارى بالواجهات السامقة لم يأخذنى عنها،
ونفاذ العتاقة إلى صميمى لم يغييها عنى. كذا مقارنتى لحظات
الدخول، بدخولى إلى قبة قلاوون وضريحه، أو إلى مدرسة
السلطان حسن، أو خانقاه برقوق المشيدة من توالى الأيام.
المدثرة بصحراء تختفى رويدا أمام نمو المدينة، هذه الخانقاه
التي أعشق، ملاذى من هجير عصرى وزمنى، عند اقترابى
الأول منها لا أدرى، ولا أجد تفسيراً لإلحاح حضور هذه
الخانقاه بالذات على، ولحظات قعودى عند الظهر متطلعا إلى
إحدى القبتين اللتين تتسلقان الفراغ العلوى العظيم. ربما
ليقيني الخفى، أننى سأخلو إلى ذاتى هناك واستعيد هذه
اللحظات عندما تصبح زمنا منثورا، لا أقدر على استعادته،
وعندما يتزايد ضجيجى المكتوم، ويشتد كلى.

اعلم يا أخى، أننى بعد إيابى، وبدء وجدى، حاولت جاهدا
استعادة ملامحها فعجزت، حتى الصورة الوحيدة ملك يمينى
لم تسعفنى، بوثوق أقول لك إنه ما من صورة أو لحظة
مستعادة يمكن أن تدل عليها، أو تظهر بعضها من جواهرها،
فى كل لحظة تبدى مظهرا، وعند كل التفاتة تظهر جانبا،
ولحظة انتقالها من وقت إلى وقت تسفر عن حضور مختلف،
فبأيهم أستدعيها عندى؟ وبأى رسم أقرئها منى؟ وما جهدى
كله بعد نائى، إلا الاقتراب من هذا الحضور المتغير، المتوالى،
المفاجئ بما لم يدر به توقع، المحاولة وعرة يا أخى، أيمكن
تلوين عبير الزهرة؟ أنقدر على رسم مسار تغريد الطير؟

أبوسعنا اقتفاء أثر لحظة ولت؟ تتوالى ملامحها ولا تظهر، فى كل لحظة تولد من جديد، بعض من مكنون نظرتها مصون فى صندوق غرارة قلبى، لكننى عاجز عن تمثله بعينى عقلى أوقن أننى لن أستعيدها حتى وإن التقينا مرة أخرى، فما كان منها كان، وما سيجىء، النظرة الحيرى أطلت وتلممت، والطفلة الوجلى قفلت وانتهت، والابتسامة الرائقة كانت ولن تكون حتى وإن دار الوقت دورته، وتذلت العقبات، وأذنت الظروف، هذا من عوامل مرارتى، غير أن لهذا الهم موضعه، فلماذا أتعجل؟ لماذا أثقل عليك؟ جنبك الله يا أخى كدوراتى. أما الآن فإننى منثن إلى ما كنت فيه، مطلعك على تدفق رقصها، على اضطرابى، على ميلها ونصحها، أن أدع جثمانى على سجيته، ألا أكون عصبيا لكن هل تفك كلماتها ما عقدته سنون طوال، ولما أبدت ملاحظة أننى كنت أبدر رائعا فى العصر، عندما واجهت البنية الأوزيكية تمهلت. كنت دانيا منها. محيطا خصرها بيدى، ولأنها النواة وأنا الجزىء، كان لابد أن أدور حولها. استعدت رجلا صعيديا شهدته ذات شتاء يرقص فى ساحة معبد الأقصر أثناء مولد سيدى أبو الحجاج رضى الله عنه وأرضاه. كان رقصا عجيبا، متدفقا، رجوليا شامخا، قلت لها إننى لا أتقن الرقص. إنما دعوتها لأننى رغبت فى القرب منها. قلت إننى لم تتح لى فرصة حوار أو حديث إليها وكنت مشوقا إلى التلميح ببعض مغاليقى، عند هذا الحد توقفت فجأة فأوشك الآخرون على الاصطدام بى. لم أعبأ، تعرف يا أخى

أننى عندما أنوى أمرا لا أتقاعس، لا أرتد خطوة، لا أحسب
الريح أو الخسارة، فما البال وقد بدأ خوض اللجة؟ نطقت بما
يدل على ما بدأ عندي، هل بدت عليها دهشة؟ ربما. هل
بوغتت؟ ربما، ما أدريه أنها أجابتني بهدوء راسخ:
- «وكيف أصدقك؟».

أوشك كل جواب على مفادرتي، خفت نفاذ زادي من
الأحرف، صرت نبضا. وتبسست خفقا، بذلت الأقاصى حتى
نطقت، قلت إن دليلى هو حالى، وليس لى إلا السعى، ولها
الرفض أو القبول فلتمنن أو لتغدق بغير حساب!

قلت إن الزمن غير مساعد، والوقت ضاغط، والبراح ضيق
فجل اعتمادى واتكالى على سلامة أحاسيسها وصفاء قدرتها
على التلقى، ذاك حسبى! نظراتى اشتبكت بنظراتها، أنا ساع
وهى مترقبة، هنا رصدت أمرا يستعصى على الإدراك، كنت
فى لب فلكى، وعين توقيتى، ومن حيث لا أدري أبحر مبتعدا
عن مركزى القديم، أدنو صوبها هى القادمة من قلب المجرات
سحيقة البعد، التى لم تكتشف بعد. ألا تهيم النيازك والشهب
حتى إذا دنت من مجال للجاذبية يحس ولا يرى، يبدو أثره ولا
يمكن الإمساك به، تهوى إليه؟ فمنها ما يدور إلى أبد أبيد،
ومنها ما يحترق قبل ملامسة سطح الفلك، ومنها ما يستحيل
بعضه ضوءا، ويسقط ما تبقى منه، وقد كنت أنا هذا كله، فأنا
حائم، ماض، داور، مأسور، محترق بذاتى، منتقل من كينونة

إلى كينونة، لا راد لى ولا كايح، حتى إذا أفضيت، لمحت فى أفق عينيها بادرة مجاوبة ربما كان طيفا أدق من أن يرى، ربما ميلاد رائحة ندى، لم يغب عنى، مع أنه انتهى لحظة بدنه، إلا أنه وصلنى فبدأ عندى وكفى وصلصلت زلزلة! خبطت اليايسة بقدمى، فتفجر منى عهد قديم، وبدأ تدفق! درت حولى، ملت على، أقلعت تجامى، تدفق قلبى المرهق يعدو وأثرى محاولا اللحاق بى، أما الموسيقى المتفجرة فولت، صارت ورائى، لم تعد مطاوعة فتلاشت الكينونة، ولاحت الحضرة، أما هى فراسخة، ثابتة فى جوهرها الدرى، تقف مائلة قليلا إلى الوراء، حضورها فى عل، دائما يا أخى مظلة حتى وإن أقعت، جاء صاحبى، قبلنى، قال إننى كنت رائعا، عدت إلى مقعدى أجرجر خطاى، قعدت، تتلاحق أنفاسى، ثبت منظرى فكأنى لم أتأجج، وعندما عاودت وجهتى إليها رفرف ما تبقى من قلبى، تلك ابتسامتها!.

فيما بعد تساعل صاحبى، لماذا كنت أبود حزينا؟ لم أحبه فلم أكن أدرى، بل إننى لم أدر كيف انقضت اللحظات التالية، حتى انصرف القوم، وخبث أضواء المطعم، خرجنا إلى صالة الفندق أربعة، صاحبى، وشاب من أهل البلاد يتقن لغة لاوس الآسيوية وأنا. ومن قبل ومن بعد هى، مشيت أمامنا، لها صدى وترجيع، أمام المصعد التفتت فجأة متسائلة:

- «ستنامون؟».

كنت مكدودا، كنت أتشظى بحزن غامض، غتيت، كنت أرغب
فى الخروج إلى بخارى، بخارى الزهن القديم، غير أن مفازتى
موحشة، لذا ملت إلى الانفراد بشجنى، يائسا من الظرف
والوقت، أجاب صاحبى..

«لماذا لا نتم السهر؟»

كأنه يؤكد اقتراحها، تضمن تساؤلها اقتراحا بمد السهرة،
واستنكارا خفيا لشروعنا فى النوم، حمت ببصرى حوالها،
مطرقة، طالعت منها جانبا لم أقف عليه، بدت ساهمة، راغبة فى
تجنب أمر ما. أو الابتعاد عن ضجر يخصصها. إذن، فى الأمر
غصة، فى سماء الكون غيمة، فى صفاء النبع كدر، أبدى
الشاب متقن اللغة اللاوسية حماسا، ولما طال صمتى توجهت
إلى مباشرة بالخطاب.

«أطلب إليك أن تجيبنى...».

ولم يكن بوسعى إلا أن أمتثل وأبى!.

قربى

أدام الله يا أخى جميل لطفك، وأتم الله خطو سعيك كما
تشاء وتبغى، أقصى عنك الوحشة، وأدام لك قريى من تهوى،
اعلم يا أخى أن فى الجماعة رحمة، وفى التئام الشمل أنس،
وفى الاتصال دواء وبقاء، فى الانقطاع عدم، لا أذاقك خالقنا
مر الوحدة وقسوة الانفراد، تبعثها والليل موغل هنا، ما زال فى
بدايته بمدينةنتى، هنا زمنى المؤقت، وهناك أيضا، أما داخلى
فتوقيت خاص، لا يدري كنهه أحد، سعدنا إلى الطابق الثامن،
من النافذة العريضة التى تتصدر الردهة أطلعت صوب المدينة،
المعالم مبهمة، والحدود منطمسة، المدن لا تفصح عن مكنونها
ليلا، غير أن ما تأملته خلال جولتنا النهارية سهل لى مرفأ

أبحر منه، حتى كدت أصغى إلى حداة القوافل الساعية إلى
الصين عبر طريق الحرير، أوشكت على التقاط ركض خيول
الغزاة، سماع انهيار الانقاض، وبقايا المعمار تتلملم من جديد،
فكأن دمارا لم يقع، وغزوا لم يحدث، رحت أستعيد هدوء
المقهى القديم، والأغصان المدلاة التى لا يمكن رؤية الواجهات
السامقة إلا من خلالها، قعاد نفر من القوم فوق المصاطب
الخشبية وأمامهم أطباق الزلابية، وددت لو شاركتهم، لو
قضيت فى الجلسة مدة، لكن لم يدم تطلعى ولمس صاحبي
كتفى، قال إن الدقائق العشر انقضت، كانت قد طلبت منا
الانتظار هذا القدر حتى ننتهى صاحبها التى تشاركها غرفتها،
مضينا عبر الممر المؤدى. طرقت الباب. بدت، تسطع فى المدخل
الضيق، ترتدى قميصا قطنيا شديد الالتصاق بجسدها،
بنهديها النافرين القاسيين. لم تكن تحيطهما بمشد غير أننى
لمحت دائرتى حلمتيها ضاجتين من خلال النسيج الرهيف،
مشرعين، منهما تنبعث إيماءات لا تحصى، تخلت عن القميص
الصوفى الفضفاض، كان يحجب ما يبدو منها الآن، ما أطلعه
من استدارة ملساء لكتفيها، أما خصرها فبلغ من دقته أنه
أوشك أن يكون رمزا، لماذا تخفى جمال تضاريسها؟ أنتعمد
وهى مكلفة بمصاحبة غريب وما من سابق علاقة بهم أن تموه
دفائن كنوزها؟ إذن.. ماذا يستر هذا البنطلون القطنى، أخضر
اللون، رجولى التصميم؟ لا إجابة عندى، فلم أكن قادرا على
إدراكها جملة، على انتظار الألوان المواتى، وهذا قد يأتى أو لا

يأتى! على انتظار الزمن المناسب لجريان الماء صوب جذور النبات، الماء يا أخى يهب النماء والحياة للزرع، ولكن هذا الماء عينه لو غمره فى توقيت مخالف سيقته، يذويه، كل شىء بقدر فلتنذكر! أدركتنى راحة عند ولوجى الغرفة، مساحة ضيقة، فى المواجهة باب يؤدى إلى الشرفة بجوار المدخل سرير ضيق لا يتسع إلا لشخص واحد متمددا، فوقه قعدت ناتاشا زميلتها تلك الليلة، دقيقة التكوين، هادئة، ابتسامتها كقرنفلة، تومى ولا تتكلم، قد تلفظ كلمة أو كلمتين، لكنها طرف أصيل فى الصحبة، بجوارها قعد الشاب النحيل، من يتقن لغة لاوس، قال إنه تطلع يوما إلى الخريطة، لفت نظره موقع تلك الديار فى أسيا. بلد ناء عنه، بعيد، شغله، كيف تبدو أرضه وجباله وزنهارة وقبل هذا ناسه؟ حتى إذا التحق بالجامعة، بمعهد اللغات الأجنبية فرح وسر إذ لقي إمكانية دراسة لغة لاوس وثقافتها، أمضى أعواما أربعة، بعدها صار يصحب الضيوف القادمين من البلد البعيد، ومما سره وأرضاه سماعه ثناءهم عليه لإتقانه لغتهم، هذا المعمارى العجوز قال له صباح اليوم، أنت تتقن لغتنا أفضل منا! مازال ينتظر الفرصة لشد الرجال إلى لاوس.

فى الحجرة مقعدان، أحدهما قريب من الباب المؤدى إلى الشرفة وهذا ما ركنت إليه، كنت قادرا من خلال الزجاج أن أرى الليل البخارى العتيد. أما صاحبى فجلس فوق المقعد المجاور للسرير الثانى، الممتد بحذاء الجدار، فوقه تريعت، فى

الركن منضدة صغيرة ودفاتر وأوراق ونشرات سياحية، فوق الجدار صورة لأحد أبواب مدرسة مير عرب، طلاء الجدران وسط بين الأصفر والبني، يمكن القول إنه في لون ثمر النارج. إننى أطوف بك. وأصف لك، ويمكننى المضى، فأذكر لك أدق الموجودات فى تلك الحجرة التى ضمتنى وإياها. كنا خمسة، لكنه أول مجلس يجمعنا، صحيح هذا جمع، لكن إذا نما الأمر واكتمل السعى سنصير اثنين، ثم واحدا، لا يدري أحدا ذاته من كينونة صاحبه، كنا خمسة مظللين بالليل البخارى ثقيل الحضور، كثيفة، قبل أيام معدودات كان كل منا فى ناحية، وسعينا شتى، رحت أحوم فى الغرفة مؤجلا الدنو منها بنظري، لو سددت البصر لرسوت، ولو بدأت الحديث عنها والوصف، صعب على ما عداها هى المركز وسواها توابع، غير أن ملامحى لم تعكس ما يدور داخلى تعرف يا أخى أنه لقسوة ما مر بى، صار عندى مسافة بين الظاهر والباطن، غير أننى مهما أجلت أو تباطأت فمصيبرى حتما إليها.

اعلم يا أخى الأعز، أنها عندما تريعت، لما صارت فى هذه الوضعية ألت إليها الصدارة، دار حولها المكان والوقت، صعب على يا أخى أن أقص لك الحديث، لكننى سأحاول تجسيد لب ما جرى وكان، أنت يا أخى سيد العارفين باللحظات الحميمية، وليالى سهرنا فى المقاهى،

ووصلنا المغيب بالفجر والليل بالنهار، لم تزل ماثلة فى بالى تعرف أننا إذ نستعيد ما قيل بعد الانقضاء نذكره فى جملته

وليس فى تفصيلة. نراه بعد انقضاء الوقت بمعناه وليس بنصه، وبعد توالى المدة فى أثر المعنى يتضاعل المشهد، تذوى التفاصيل، لا يتبقى إلا الرحيق، الشذا، سنا هين، واهن، من لحظات مرت بنا كان الواحد منا إذا شهق خلالها شهقة لفرط انفعالة، يوشك أن يتلاشى هلكا، وإنى لمذكرك ببعض مما ألمحت به، فالأتى لما يغيب عنى والتغير يحوم حولى فى ذروة الثبات، اللحظة فى أنيتها عدم محض، لذا عند مرورى بها أطلعها من بعد قصى، فإما استعادة لما انقضى وإما استحضار لما لم يأت بعد، هكذا أرقب الانفصال فى وهج الإدماج، وأرصد العدم فى ذروة الوجود، وهذا ما يقضى، الثبات المستحيل، والتغير القاهر، هكذا أطلت النظر إليها، ليس بعينى فقط، إنما بقلبى، بخواطرى، بشواردى، بوارداتى، أجتهد فى النفاذ إلى ملامحها، حتى أستعيدها عند نأى عنها، الرحيل حتمى، لم أكن أحاول استيعاب ملامحها الحية، الجميلة، المتدفقة بالطلاوة، ولكن حضورها أعنى، هى فى اللحظة ماثلة أمامى، ولكن اللحظة إلى انقضاء. بعد انصراف إلى غرفتى، كيف ستبدو؟ كيف سأستعيدها؟ سأراها فى اليوم التالى، غدا، قال قائل يوما..

لا مرحبا بغد ولا أهلا به إن كان تفريق الأحبة فى غد
ولكن شاء القائل أو لم يشأ، أنا، أنت، هذا أو ذاك، فالغد
أت لا ريب، ومنقضى، هكذا بعد الغد حتى بعد البعد، إنن..
كيف سأستعيدها بعد إيابى إلى موطنى؟ بعد أن تباعد القارات

ما بينى وبينها . كيف سأذكر هذه اللحظات عندما يضعف حضورها فى ذهنى، وتصير ملامحها تلك مختلطة بخطوط ولحظات شتى، هذا صائر لا محالة، أليس مصير كل تلاق إلى فراق؟ والفراق بداية العدم، وقد بهت عندى ما ظننته لن يبيد أبداً، أذكر أيام طفولتى وصباى يا أخى فأئنسى خشية أن أتصدع، أيام لمتنا تلك استثناء فقد كنت غيا لا أعى دبيب الأيام، أو سريان الوقت، لم أرقب الآتى، ولم أنتبه، حتى إذا شببنا وتذرينا، توزعنا على الجهات الشتى، فصار كل إلى سبيله، وغاب عن العالم أب ظننته مخلداً . وأم وددت يوماً لو مت قبلها، أما شقيقى فغائب هناك وراء المحيط له حياته التى لا أعرف عنها شيئاً . أبناؤه الذين لم أرهم إلا فى الصور، فيا أخى إصغ إلى محب لك، لا تدع لحظة تولى دون النظر إلى ولديك . وأظل الجلوس إليهما، لا تدع الدنيا تأخذك عنهما، فغد قريب سيبدأ فيه اغترابهما عنك، سيصير لكل منهما حياته، وبدء كل منها يعنى انزواء بعض منك فانتبه، لا أرم تكديرك يا أخى، فانت تعلم مقدار محبتى لابنك، وقضائى الوقت معهما مما يهدهدنى، ودخولى دارك له ألفة فكانها دارى . وعلى أية حال لا يكون الثمر إلا بعد تفرق الأغصان وابتعادها عن الجذع، الثبات والتغير يا أخى لب القضية ولغزها، فهل سيرى سعيئنا، اعلم يا أخى أن تعلقى بفن المعمار وإنقاسى له، وطوافى بمشارق الأرض ومغاريها للوقوف على شواهده وروائعه، إنما بدافع مما يلح على فإذا كان الدهر لاراد له ولا

مانع، إذا كان يجرف كل شيء، فلنحاول إبطاء تأثيره بالعمار،
بالحجر، لذا قال القائل قديما، لو أن الفتى حجر، ولكننى أعى
أيضا أن الحجر مصيره إلى بلى، فماذا أنا فاعل؟
فوجئت بها تقول..

- «لماذا تبقى بعيدا؟»

فرحت كطفل لأنها خصتني، أولتني اهتماما، لمحت
شرودى، تطلعت إليها شاخصا، ممثلا، وإذا بها تفارق
قعدها، تنبثق فى وسط الغرفة، تتقدم منى، أقوم واقفا، تمسك
حافتي مقعدى تدفعه، تعتدل، تفرد طولها البديع وتشير كملكة
تصدر أمرا..

- «أنت هنا».

تلتفت إلى صاحبى، لم ينتظر دعوتها، تقدم بمقعده،
مبتسما موقنا، أنها راغبة فى اللقاء، فى التقارب، فى تدانى
المصائر، طوقت سوقها بنظري، وددت لو ثبتت هذه اللحظة فى
وعىي. بينما ألح على تساؤل، أين كانت هى فى مثل هذه
اللحظة، العام الماضى وأين كنت أنا؟، بل أين كنت لحظة
مولدها علم ألف وتسعمائة وثلاثة وستين؟. كانت نفرا فى
القافلة الوافدة من العدم إلى الوجود. ويوما مالا أدرى كنهه
الآن. إذ لا تدري نفس بأى أرض تموت، عندما أقلع من الوجود
إلى العدم. أين ستكون هى؟ بأى أرض، بأى محلة؟ أستكون
ساعية؟ أسيطوف أثرى بخلدها؟، كنت فى مواجهتها دوارا فى
فلكها، وفى الوقت عينه بى حس من شد خفى المصدر، لا يبين

لا يكاد ينتزعني منها، كنت موزعا بين ما أنا عليه وما ساكونه،
 مفقودا حاضرا، مفقودا بين لحظتين، حاضرا فيهما معا!.. اعلم
 يا أخى أن إخوانا لنا من زمن بعيد قالوا فى رسائل لهم، إن
 الزمن ينقسم إلى سنوات، سنة مضت، وسنة لم تأت بعد،
 والسنة تنقسم إلى شهور، شهر معني وشهر لم يأت بعد، وأن
 الشهر ينقسم إلى أيام، يوم مضى، ويوم لم يأت بعد، وأن
 الأيام تنقسم إلى ساعات، ساعة مضت وساعة لم تأت بعد
 والدقائق منها ما مضى وما لم يأت بعد، والدقيقة تنقسم إلى
 ثوان، ثانية انقضت، وثانية لم تأت بعد، إذن أين الزمان؟ وهكذا
 مضى منى مقدار، ومقدار لم يأت بعد، فأين موقعها هى منى؟
 تعود إلى مرقبها، إلى موقعها، إلى الحيز المكانى الذى يشغله
 وجودها الحسى، بدأ فيضها، لا تستقر على وضع واحد أكثر
 من دقائق معدودات. تتكلم فتبذل الجهد الأتم لتبدو وكأنها
 تخاطب كلا منا، تخصصه، تتزاحم الجمل والكلمات عندها،
 يصبح النطق غير مساعد، فتتحدث عيناها، وملامحها كافة،
 تبدو راغبة فى بوح فى اقتراب، فى تلاق، أمله أن يدرك كل
 منا ما لم تقله، الظلال التى يعسر لفظها، قالت إنها المرة الأولى
 التى تنزل بخارى ومن قبلها طشقند، المرة الأولى التى
 ستضى فيها إلى سمرقند، البلاد شاسعة، ولكم ترغب فى
 رؤيتها، ها هى فى آسيا الوسطى، ومشروعها القادم إما
 سيبيريا أو جبال الأورال، ستفضل القطار. الطائرة تلغى
 الإحساس بالنقلة، تود الإقامة، فمعرفة المعمار الحق لن تكتمل

إلا بإدراك البشر. عملها كمرافقة استثنائي، اختاروها لا تقاها
الإنجليزية، بدأت تتعلمها منذ الرابعة، وهى فى الحضانة أنها
تدرس الطرز القديمة، التفتت إلى، إلى صاحبي، تعرف الكثير
عن العمارة الفرعونية..
«لماذا تسكت؟»..

توقفت فجأة. حادت صويى، باغتتنى بينما كانت تجتاحنى
على مهل، ويقدر انبعاث بهجتى لتوجيهها اللفظ إلى بقدر
وجلّى، نعم.. كنت صامتا برغم موارد داخلى، كنت أمنح منها
مددا يشد أزرى بعد بدء ابتعادي، سؤالها المفاجئ ذكرنى بى،
كنت مثلها فى تدفقها هذا، أيام لم أكن أعبأ بساعة هجوع
معينة، لا أشكو خللاً لا أقاسى وحدة، أيام اجتماع الصحب،
واكتمال اللمة، انقضاء الليل ونحن سهارى، يتكشف الخيط
الأبيض من الأسود وحواراتنا لم تنفد والأمر فيه بقية، وقد
أبدى اقتراحا لم أعد له العدة، أن نمضى إلى شارع المعز.
نجوس فى ظلال المباني العتيقة. أقف بين الصحب، أشير إلى
الواجهات السامقة، أوضح الفرق بين مؤذنة قلاوون، ومؤذنة
برقوق، أبدو منفعلا، حتى قال صاحب لنا سورى يوما: أنت
تضفى حياة على الجدران الرمادية، حتى لتوشك الحجارة
على النطق!، لماذا تسكت؟ لم أجبها مباشرة فمطت شفيتها
تعجبا وحيرة، واستمرت، والدها أستاذ جامعى، متخصص فى
الاقتصاد، أما والدتها فطبيبة، باحثة فى علاج الأورام.

كنت يا أخى أواجهها بتراث مثقل، وحمول جمّة، وحزن غتيت ملازمى طوال السنين الأخيرة، أورث هذا عيني ظلالا، وكسى نظراتى غمامات رمادية، كان فيضها ينبهنى بقوة إلى أى حد أوغلت مبتعدا. عرفت فيها مثل تدفقها هذا، وددت لو أعرف كيف ترابى من خلال موروثها وتكوينها، كيف أبدو عندها؟ متمنيا أن تدرك بعضا مما يعتمل داخلى، وددت لو انفردت بها دقائق، لو فجرت بعضى بين يديها، لكننى لم أرها إلا فى جمع، هذا صاحبى يبدو ودودا، مبتسما، يتقدمنى بأكثر من عشرين عاما، عرفته متفائلا دائما والظرف العاتى غالب، فياضا، قادرا فى الحال العاتى. وإنى لمحدثك عنه يوما إذ خاض انتخابات نقابتنا، غير عابئ بما يتهدده من أخطار. متصديا لذلك المهندس المقاتل المدعوم وقتئذ من كل سلطة، وأحد رموس الفساد، خطب محرضا، وخط الكتيبات كاشفا ما يجرى فى الخفاء، وذكر الأرقام، وأتى بالأدلة، حتى قلت يوما مادام فى قومي من هو مثله فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون، وعندما زج به فى السجن لم يهن صوته، ربما لأنه مازال فى جماعة وصحبة، ألم أقل لك يا أخى إن فى اللمة رحمة؟ أما قناعاته فلم تدرکہا الشبهة، لم يصبها عطن، ولم ينل منها وهن، كنت أرقب قدرته على المجارة والتفاعل، محاولا قدر طاقتى تتبع ما يجرى بينهما من حوار. لا أدري مسار الحديث الذى أفضى بها إلى القول بأنها تزوجت فى الثامنة عشرة، إذن.. ليس كما أخبرنى الهندى. عندما همس لى محذرا أنها

زوجة جديدة، بما يعنى اشتعال الجذوة، إذن.. كانت تصرح
بما يدفع عنها الشروع أو المحاولة، قالت إنها لم تر الآثار
الفرعونية إلا فى الصور..
- «هل رأيت الكرنك؟».

أومات مبتسما، فرحا أنها تنطق أمرا يخص قومى، لكم تود
دخول الأهرام. والوقوف بين يدي (أبو الهول)، وزيارة معبد
إدفو قالت إنها قرأت عن ظروف بناء هذا المعبد فأحبته، بدأ
تشبيده والحضارة تذوى، والعقيدة مطاردة، أتمه القوم ليلا.
- «هل زرتة؟».

ينبهنى صاحبى..

- «فاليريا تسالك...».

أهز رأسى نفيا. تبدى تعجبا ودهشة، يقول متقن لغة لاوس
الهادىء الصموت:

- «فاليريا اسم له أصل عربى...»

نتطلع مستفسرين، تشهر أصبعها..

- «يعنى ليلى...»

أرضى إذ أجد وشيجة قريى بينها وبين ناسى، طال إقلاع
بصرى تجاهها، بدأ ضوؤه خفى مختلف يشع عبر وجنتيها،
أيقنت أن أجدادها الأقدمين لم يتناسلوا إلا لتصل هى إلى
وقتي، وتقرع مغاليقى بفيضها، فكأنى ما جئت إلى بلاد ما
وراء النهر، مادنوت من نهري سيحون وجيحون إلا بحثا عنها،
لاكتشف عين الحياة التى خلقت منها، أبدا.. لم تكن هذه نقطة

فعلقة، لم تكن يوماً بين صلب وترائب. إنما خلقت من ماء
 الحياة، منها تتدفق الحيوية، غير أنني لم أحتس منها بعد، مع
 مضى الليل كنت أطلع إليها، مأخوذاً عن كل وجود سواها،
 فلو تمثل العبد الذى أوتى من اللدن علماً، وقتل أحد الموجودين
 لسبب يعلمه هو لما استفسرت، لو هدم الجدار القائم لما سألت،
 لو أشعل النار فى الأفق لما انتابنى فضول هى فقط فى
 مواجهتى، أتلصص طرقاً إلى رائحتها، ألق منها إليها، فهل
 يدرك الكوكب انجذاب توابعه إلى فلكه، كنت أترقق، وعناصر
 منى تتبدل إلى مالا أعده، حتى إذا بلغت حداً من التوارى
 والانطواء داخلى، وأيقنت أنه لا عالم بعد اليوم، شبت طفرة من
 طفراتى، واندلعت إحدى ومضاتى، فأرقت مقعدى فجأة،
 وحططت بجوارها، أهدتني نظرة جانبية راضية فأمنت،
 احتفظت بمسافة تمكّنى من النظرة الشمولية، أما هى فغيرت
 على الفور من وضعها، ثنت ساقها تحت وركها، فانقلبت فى
 حركة مباغته لتجثو على أربع، بدأ ظهرها رحب النغم، أما
 حضورها الحسى فازداد توقداً، وما زاد الأمر صعوبة
 انحسار القميص إلى أعلى، وتراجع بنطلونها قليلاً، مما كشف
 عن وادى ظهرها المؤدى إلى مفرق ردفها، ولمجرد أننى تطلعت
 فكأننى لمست، دنوت وتنديت وقلقل هذا حسى ومعناى، لاحظت
 أن صاحبى أدرك ما أدركت. فسد نظراً نهماً، لم يخفه،
 ضايقتى منه هذا، وددت لو أنه لم يفعل، تمنيت لو غطت ما بدا
 مع أن ولايتى منعدمة، إلا أنها لم تركع إلا لثوان، فردت

جسدها، فكأنها بعثت من داخله جسداً آخر، حركت ذراعيها،
 بدت على حافة الرقص، غير أنها ثنت ساقها تحت الأخرى،
 اتخذت وضعاً بوذياً، وتحدث الحاضرين أن يأتوا بمثله. بادر
 صاحبى، بدأ المحاولة لكنه لم يتمها فارتحت! تقدم متقن
 اللاوسية، إلى حد ما نجح إلا أنه لم يحتفظ به، بينما كانت هي
 كما هي، أنا لم أشرع، أما ناتاشا الصامتة فصفتت، عندئذ
 أنهت وضعها، بدأت تغنى، كان صوتها فتياً، يتضمن رقّة،
 وشجنا خفياً، تابعناها متمايلين مع النغم، وهنا بدا منها تجدد
 آخر، لم يدركها الوهن أبداً، أما عيناها فازدادتا تألقاً، أقول لك
 يا أختي إن العتمة لو أرخت سدولها لضوت هي، مع قربى منها
 دام تطلعى ومحاولة تتبعتها، فاصبر على يا أختي لو فصلت
 وأطلت..

فتارة أراها صاعدة، متجهة إلى منبع ربح الصبا، وتارة
 إلى حر الجنوب..

مرتفعة إلى أوج. هاوية كشهاب دنا أجله، وحيان احتراقه،
 حتى إذا أوشكت، شهقت فيعجز الفراغ عن استيعابها..
 تدنو من البروج كلها، فتارة للبروج النارية، ومرة للترابية،
 وأخرى للهوائية، ثم تنعطف إلى المائية، إلى المتقلبة، إلى
 الثابتة..

المح عندها دوران الفصول، هي ربيع، هي صيف، هي مطر،
 هي صحو، أراها متفرقة، أراها متجمعة، أحياناً ناظرة،
 وأخرى مولية، منصرفة، مقبلة، مجتمعة، واقفة، مجتمعة، واقفة،
 منبع ومصب!

قريبة حتى أوشك على تنسم ما تجود به مسامها .
 بعيدة، قصية، مستحيل إدراكها، فكأنها مصدر كل
 اغتراب، هى بجوارى، طفلة تلهو، وأنثى ضاجة، فوارة، مثيرة
 للكوامن. تطرح ألغازا وألعاها، ثم توغل فى نقاش عويص عن
 وجهة المصائر وغايات الأمور الخفية..
 رأيت فيها مراحل فى لحظة، وأعمارا شتى فى كينونة، أما
 جسدها فمعمار متكامل، مبسق، علو كقبة بانتيون روما،
 ورشاقة تستعصى على اللمس كمنحنى مدخل مدرسة
 السلطان حسن، مهيب كأيوان كسرى.
 - «لماذا تنظر فى الساعة؟» .

اعلم يا أخى أننى لم أنتبه إلا بعد أن فاجأنى احتجاجها،
 انها الخصال القديمة، فى تمام القرب أستدعى اكتمال البعد،
 وفى ذروة النشوة أفتح عيني لأرصد ردود الفعل على وجه من
 اقترن بها، وألج جسدى فى جسدها، فى هذه اللحظات أدركت
 اقتراب الفجر، ولهذا ودون أن أعى تطلعت إلى الساعة،
 والهواجس عندي تبدأ مع اقتراب الفجر، حيث اضطراب
 أنفاسى، وإصغائى إلى أصوات تصدعى واقتران ذلك بتوقع
 الموت، يضطرب قلبى، وتتداخل أحوالى، ولا أدري لماذا أوقن
 أن رحيلى سيكون فجرا، الآن ميلادى كان فجرا، أم لأن إقلاع
 والدى تم فجرا أيضا؟ فى الفجر أتوجس خيفة، وأصغى إلى
 دبيب اليوم القادم. متسائلا، هل أنا بالغه؟
 تطلعت إلى صاحبي، فهم عنى، أوما، صاحبت محتجة..

«ستنصرفان؟»

لزمتم صمتي، أجاب صاحبي..

«لابد أن تنام ناتاشا، لابد أن ننام لو ساعة..»

ثم قال..

«أمامنا غدا سفر وجولة..».

تلفتت إلى ناتاشا:

«تريدين النوم؟».

تجيب البنية بابتسامة، وبدأ متقن اللاوسية على أهبة الكلام

لكنها صاحت..

«اسكت أنت..».

رق صوتها فجأة، لمحت فيه رجاء.. قالت..

«لماذا لا نخرج ونقابل النهار معا.. ثم ننام!..».

بحدة التفت إليها، وأيتها بين شجرتي التوليب، أكانت تقابل

النهار منفردة وقتئذ؟، غير أن ماهزني أمر آخر، هذا مقترحي

في الزمن القديم.

منذ أمد كنت في عشق عظيم، هاتفتم صاحبتى بعد

منتصف الليل. مقترحا أن نلتقى بعد الفجر. أن نرى أول ضوء

معا. أبديت ترددا وخوفا، وإن أعجبها عرضي، وفي مرة ثانية

التقيننا ذات صباح، وخطر لي أن نسافر إلى الإسكندرية، نرى

البحر ونرجع في اليوم نفسه، قطعنا المسافة متقاربين

مبتهجين، وعندما طالعنا الموج، والزرقاء، طرينا، وتقاهمنا، وعند

المغيب عدنا إلى مدينتنا، هذا مقترحي، وإذا بالدائرة تكمل

ويتلى على مسمعى ما قلته يوما، وممن؟ من هذه المجرة
الأنثوية، وما أنا إلا تابع لأحد أجرامها، فإما درت حولها، وإما
انجذبت تجاهها، وإما أفلت من إسارها فأهوى إلى هدم، تبدى
هى الرغبة، بل بنفس الإيقاع الذى صدر عنى يوما، فأتردد، بل
واعتذرت وأسفت لى، رثيت على، أين اتصال الليالى ببعضها؟
أين سهرنا صحبة فى المقهى القديم؟ حتى إذا أذن الفجر
ولجنا المسجد القديم، القريب، نتنسم فراغاته، وصفاءه، نخرج
منه والنهار مكتمل، نشيطين، أما سعيينا فشتى. ما من تعب، ما
من وهن، أين زمن الحرب عندما كنت مجنداً فى الصفوف
الأمامية، تتوالى أيام ثلاثة دون إغفاءة. ويكفى إغماضة العينين
لحظات معدودات فتجدد الجذوة، أين هذه الأيام أين؟ أهو
السن؟ لكننى لم أوغل بعد. أهى العلة المفاجئة. لكنها نتيجة
وليس سببا، بعدها صارت أفعالى فى الحدود بعد أن كانت
فى المطلق، لكن صاحبي هذا به أعطاب شتى ويتأجج حيوية،
أعنى أن لحظاتي فى الليل البخارى هذا ستكون زادا عندما
أثقل فى وحدتى، وأوغل فى غريبتى، كنت أعنى يا أخى أن
حضورها بقربى سيتوالى على، زاد نفيس، عزيز، فلماذا لا
أبقى؟ لماذا لا أستجيب! خاصة أنها هى التى تطلب، هى من
يرغب، الوعى أننى مهما بقيت فمصيبرى إلى انصراف؟
الرغبتى فى الانفراد؟.

- «لماذا تريد الانصراف؟».

- «لابد من النوم...».

تقول بضيق.

- «سيجئ زمن ننام فيه طويلا..»

- «إني مرهق..»

قالت:

- «كل شخص فينا مرهق..»

انتبهت إلى اتصال الحوار بيني وبينها، أنا وهى لا غير،
كنت يا أخى حائرا، إلا أن وقوف صاحبي، ومتقن اللاوسية.
وإنهاك ناتاشا البادى حسم الوضع، وعندما أويت إلى
مضجعى أيقنت من إتمام اجتياحها كينونتى، وأن ما تراءى لى
نائيا صار قريبا، وما أصغيت إليه دببيا صار ركضا، غير أنها
يا أخى لا تزال قصية، فكيف أتم الرسالة؟.

إرتقاء الكتيب

.جياش أنا يا أخى، وما تاريخى إلا عطاء بدون انتظار.
وفيض بغير حساب. وعما أنا فيه فلم أبغ إلا الإحاطة. أليس
ظلما لو أن جوأى لم يلق ظلا، وهوأى لم يحدث صدى؟ قوى
عزمنى. وانجذابى، وإنى لسارد عليك حوارية دونها عارف
قديم، جاء إلى بلاد ما وراء النهر، وربما وقعت عيناه على
بعض مما رأيته أو توقفت عنده، قال الجليل واسمه جلال
الدين..

قال: من الباب؟

قلت: عبدك المحب.

قال: فأى شئ لك؟

قلت: أقرئك السلام أيها العظيم.

قال: فإلى متى تلاحقنى؟

قلت حتى تدعونى

إلى متى تجيش؟

قلت: حتى القيامة.

هذا لب قصدى، أن يصلها نبأ بما عندى، أعلم يل أخى أن
من الأشياء ما لا يمكن إدراكها أو تصويرها لخفائها أو دقتها،
مثل الجزء الذى لا يتجزأ، والمعنى الأول، وسبب ورود هذا
الخطر دون ذاك، وسير الميل إلى هذا الشخص دون غيره،
وجوهر الثمر فى الأكمام واندلاع توقى. وإدراكى أن ما أمر به
مآله إلى انقضاء، ومع ذلك لا أنثنى، فالوعى عندى أثم، إن
نهاية الشئ فى بدايته ولحظة تهدم البنيان تتحدد عند تشييده،
أما موت الإنسان فيبدأ عند ولادته، وكما قيل فى المعنى.

ميتا خلقت، ولم أكن من قبله

شيئاً يموت، فمت حيث حييت

أعلم يا أخى أننى وقفت بمفردى مستقبلاً نهارى
السمرقندى الأول، اعتدت تبدل المواقيت، واختلاف الأزمنة.
استيقظت وعندي جذوة متقدة، هى على مقربة، تشغل حيزاً
معلوماً بقدر، تتنفس هواء بعضه يعرف طريقه إلى صدرى، أما

وجهها رحب الملامح، فسيطالعنى بعد قليل، كنت مستوفزا،
متأهبا، تقدمت من باب الشرفة الزجاجي، ذرات الماء الدقيقة
مغمية، مسحتها فانجلت الرؤية، فى البلاد التى أنزلها أول مرة
اعتدت إغلاق الزجاج وإسدال الستائر الخفيفة لا غير، أما
الثقيلة فأنحيها، أوثر مقابلة كل عنصر فى الأرض التى أطؤها
أول مرة. فما بالك وسمرقند لها عندى فرادة، وقديم صلة،
وأحلام مبهمة، وتوقعات غامضة، واحتمالات ربما تبدوا لك
مستحيلة، أن ألقى بعض من سبقونى بقرون، خبرت هذا غير
مرة، عندما شاركت فى جمع جاء إلى فاس ليتدارس وسائل
الإبقاء عليها، والقيروان بتونس الخضراء عندما مضيت لأعين
مسجد عقبة للسرمدى، وعندما استندت بيدي إلى جسر
خشبي فوق نهر العشار لأتأمل شناسيل مدينة البصرة، ومن
قبل ومن بعد قاهرتي المعزية التى فرقت لحظاتي عند نواصياها،
ومداخل مبانيها، يخيّل إلى أحيانا يا أخى أن ما مر بهذه المدن
لم ينقض، لم يندثر، دائما أتوقع من يجيئني ليأخذ بيدي
ويصحبني إلى غير ذى جهة لألقى الأسواق القديمة، وحلقات
الدرس فى مدارسها القديمة، وساحاتها يعبرها المحاريون
الخارجون لملاقاة الغزاة، وإذ أجول عبر الدروب الضيقة أجد
النفس للوصول إلى ملمح مما انقضى. لكننى لا ألقى إلا
الآنية!

أشجار ضخمة تتخلها شجيرات التوليب، تتمنم الرؤيا،
تؤطر الوجود، قبة زرقاء سامقة تولد من خلال غبش الضباب،

تحدد الفراغ، حدث ببصرى، ليست بمفردها. قبة أخرى تواجهها، فيما بعد أدركت أن القباب هنا تجاوب بعضها، فلا تدرى الأصل من الظل، وأينما وليت وجهك فلا يقع بصرك إلا على نممة النقوش تجاوب النقوش، والرقعة تؤاخي المهابة. أما تدفق الخلق فلا بد أن يؤدي إما إلى بوابة عتيقة. أو مدرسة، أو مسجد، أو ساحة انطلاق. أو ضريح يرقد فيه جليل، تلك مدينة سيد الفاتحين، من طمح إلى امتلاك العالم. تيمور. ولى تعليق أود لو أقضيت به إليك، ولكن فى وقت آخر. وليس الآن. فإنى متعجل رؤياها، أليست باعثة جذوتى تلك، والتي طال ترقبى لها زمناً؟.. بسرعة أديت طقوسى الصباحية، من حلق لحية، وغسيل أسنان. وحمام دافئ. وترتيب حاجاتى التى سأصحبها فى حقيبتي الصغيرة، عند دخولى المطعم كان المكان خلوا منها. لمحت صاحبى، أمامه طبق فيه بيض مقلى، وكوب ملئ بالشاي، ورغيف أوزبكي. بدا صامتاً، إلا أنه محتفظ بظل بشاشة، وطيف ابتسامة، وعندما بدت بنية رقيقة. دقيقة التكوين، تلملم شعرها فى ضفيرة طويلة، سخية، أقدمت تجاهه مستأنسة، متحمسة، أضمرت حسداً وإعجاباً لإبدائه الود تجاههن، وإظهاره جميل اللياقة وإقبالهن عليه، وبينما تتعاقب التعبيرات الآمنة على وجهه، اعتصم بصمتى، محتفظاً بسمتى، فما يبدو مغاير للباطن. أظهرن النفور منى، لم يومئن حتى عند مرورهن بى. وهذا جعل خشيتى تتعاضد، ألا يصل من أدور فى مجالها قبس من عندى. لم أكن أرى ماعداها، ولا أعبأ بغيرها،

وعندها جاءت، سرت، ولما أوشكت أن تتجاوزنا ناديتها، توقفت، والتفتت. وأومات، ثم لبث، وعندما استقرت بجوارى هدهدى قريبا، اقتربت من حافة عبيرها الخاص، الرائحة القادمة من توالى حضورها، من أنفاسها، من مسامها، من زمنها، لم أتمكن منها بعد. غير أنى رحت أحوم أحاول الطواف والقبض على ما لا يرى، هذه أنفاسها، وهذا أريج شعرها. أما الصبا فقادمة من أغوار روحها، أثار قريبا منى حيننا غامضا إلى وديان لا تقوم فيها بناية، ولون أخضر زانٍ نضري يوحى بالبلل. تبدو مهمومة، ساهمة، فكأنها قاست أرقا، متطلعة إلى جهة لا ترى، أما إمساك يدها بزجاجة الملح الصغيرة وإدارتها فتعنى انشغالها بأمر يستعصى على إدراكه، وكدت فى هذه اللحظة أوقن أن ما بدا منها فى ليل بخارى لن يتكرر، كانت تتجاوزنى بالنظر، وكنت أدركها وأدرك المدينة معا. إلى داخل الفندق الأوروبى التصميم ينفذ حضور المدينة. تبدو بخارى وكأنها أقلعت من الدهر، أما سمرقند فمتباهية، مختالة، لا تزال فى لبه؛ بخارى لا تتكشف للغريب مرة واحدة، شيئا فشيئا، أما سمرقند فتبدو بشمولها، بعمقها منذ اللحظات الأولى، يسألها صاحبى عن المعمارى الهندى وصحبه. قالت إنهم تناولوا إفطارهم مبكرين، وهم يجوسون الطرقات قرب الفندق، جاء النادل، وقف منتظرا، اقترحت عليها الزلابية، قلت إننى عندما أنزل بلدا أول مرة. أحرص على أمرين، أن أطعم ما يختص ' أهله، وأن أصغى إلى موسيقاه. قلت إن موسيقى

هذه النواحي حزينة، شجية، فيها أنين مؤلم عمره قرون. فيه صلاصلة الأزمنة المندثرة، والقيام والانهيـار، والقطع، والانتفاف، والإحساس بالمجد، قلت إن مـالفت نظرى تلك الإيقاعات الأندلسية، والآهات المصرية، والأنات العراقية، والوشى الصينى، قال صاحـبى إن تاريخ المنطقة وعـر.

هنا قالت إن للمكان خصوصيته المؤثرة.

ثم مالت تجاهى

ما الزلايية؟

قلت إننى تناولتها فى بخارى أمس، فطائر محشوة باللحم المفروم..

ثم قلت..

نفس الاسم عندنا. لكننا نطلقه على فطائر حلوة..

حادثت بدهشة، قوست حاجبيها فبدا جمال كامن، وأصغيت عبر ملامحها إلى لحن بعيد. تائه منى، غائب عنى، لحن مبهم، يؤجج حنيننا ويضاعف تطلعات إلى الرحيل، ويستدعى لحظات بهجة، إما أنها ولت. أو لم أعشها، أو لم يعد لها موضع فى الذاكرة المثقلة.

مضيت أشرح التقارب بين الأطعمة هنا وهناك. ولم يكن تدفقى إلا حجة للنظر، ووسيلة للقرب، تعلم يا أخى أنى أحيانا

أبدأ فلا أكف عن الحديث، خاصة إذا كنت فى جمع بينه من أحب. أتجاوز كمونى، فكأنى ألوذ بالصحبة، حتى إذا انفردت ارتددت فإما وجلت، وإما انفجرت. كانت تصغى ساهمة، متبعة، فكأننا تبادلنا المواقع، فى ليل بخارى فاضت هى. ولزمت الصمت، وفى الصباح السمرقندى هذا أطلت وأصغت هى، جاء النادل أسىوى العينين والوجنتين، وضع الطبق أمامها، أقدمت حتى اغيب عن طقوس الخدمة، ملأت كوب الماء. وقربت طبقا غير ممتلى، وعندما قضمت قطعة من الفطيرة ازداد شرودها، مع المضع بدت شفتاها مضمومتين، رياتن، هما حضور الياقوت، ودقة شقائق النعمان قمعت رغبتى فى الميل والقطف حتى لا يلوح على مايشى بأمر صبابتى وحدة توقى، لا أدرى يا أخى كيف مضى الحديث، لكننى انتبهت وصاحبى يقول:

هل سمعت؟

كيف لم أصغ؟ لكن عذرى أننى كنت مولياً وجهى شطر إحدى جهاتها، أحد رواقمها، أبديت الاستفسار. عرفت منه قبسا مما صرحت به وأنا فى قلب الغيبة عنها لشدة حضورى قريبا.

اعلم يا أخى كشف لك الله ما خفى عنك، وما دق فهمه عليك، أنها عندما كانت فى الثامنة عشرة، أى منذ ست سنوات، تعرفت إلى من هو زوجها الآن، هل كان مقيما على

مقربة؟ ربما، هل كان على علاقة بوالديها؟ ربما. المؤكد أنه هام بها. فى كل صباح عند اجتيازها عتبة الباب تلقى الأرض مفروشة بالزهور. وعند المدخل الرئيس تلقاه، يحيطه الثلج، ملتحفا بمعطفه. بغطاء الرأس الثقيل والانتظار والرغبة، أسابيع طويلة لم ينقطع يوما، لم يغب صباحا، وعندما اقترب يوم الخامس والعشرين من مايو، اليوم الذى جاءت فيه إلى الوجود، وقبيل انتصاف الليل بدقائق خمس، فوجئوا بطرق هين، كان يقف بالباب، حاملا باقة زهور، قدم بطاقة خط عليها ما ينبئ بدخائله. ورجاها أن تقبل ساعة دقيقة، ذهبية الإطار، كان يحتفل بعيد ميلادها على طريقته كما قال، أحبت حبه لها. كانت صغيرة، لكنها بعد اقترانها به، رأت فيه شابا جدا. هكذا أقضت متأسية، متحسرة، لم تخف أمرها، صمتت، كأنها ودت لو أنه أكثر نضجا، ولاح منها ما بدا معبرا عن تفار. لم أعلق يا أخى، خفت أن أبدو غير موفق، وإن احترمت حبه لها. ومشروعه فى التعبير، وحاولت أن أتخيله فلم أقدر، وددت لو استفسر عن حبه الآن، كيف يعبر عنه، كيف يراها عند استيقاظها؟ عند تحركها فى البيت؟ كيف تمضى أدق لحظاتها الخصوصية؟ لماذا تبدو حزينة؟ أل هذا الحزن علاقة، أم أنه لأمر مختلف؟ بعد أن فرغت سألته عن يومها، قالت إنه موزع ما بين المعهد وما بين البيت. ما بين دراسة المعمار وما بين شئونهما، إنها تقوم بكل شيء، أحيانا تمضى للسباحة، للرياضة أو للمشى مسافات طويلة. سألته عن أصحابها الأقربين، فقالت إنها لا تتق بأحد!

أخى الأعز..

هذا حوار جرى بيننا، بينى وبينها لا غير، فى المسافة الواقعة بين باب المطعم، والمدخل الرئيسى للفندق. حوار له منزلة عندى ومودة. حتى وددت لو دوت ما أحاط به، تاريخ هذه البقعة من الأرض التى مشينا فوقها، من لاس موقع خطانا منذ أن جاء إليها بشر وسعى إنس، وددت لو وصفت ما أحاطنا، وذكرت كل من تواجد على مقربة، وحال الطقس، وموقع اللحظات من دوران الفلك. أليس حوارنا الأول على انفراد؟.. أليس الحوار الذى أنس فيه ثقة بى، وخصوصية؟.. فما صرحت به لنا لم تقله للهدى وزملائه مع أنها مكلفة بمرافقتهم، وشرح ما يرويه، وتيسير السبل لهم، لكنها شاءت لعلاقتها بهم ألا تتجاوز الإطار، كما أنها موته، فلم تفضح شيئاً عن حياتها، أما النبيرة التى صرخت بها أنها لا تثق بأحد، فبقدر ما تضمنته من شكوى، بقدر ما اجتوت من أسى ويوح إلى أنا، كنت متأهبا لالتقاط أية إشارة. تلوّن صوت، أو ارتعاشة واهنة فى مخارج الحروف، أو تسهيم نظرة، غير أن سنينى علمتنى الحذر. إلا أبالغ، فلكم أسى فهمى، وإكن أبديت وصورت، وأفصحت وأحببت. وأنت عاالم ببعض مامر بى.

عندما اجتزت المدخل، بدت برودة الجو محتملة، إلا أننى اجتفطت بغطاء رأسى، الأشجار حول الفندق. وأينما وليت البصر تقع عينك على مباني العصور القديمة. الخزف الأزرق

غالب، فكأن مواد البناء والزخارف. والخط المستعليق والثلاث
وتلك الحروف المتداخلة المتصلة وثيقة القربى بأسباب خفية.
تمتع من زرقه السماء وتنهل، وإذا كانت بخارى كالمخطوط
العتيق الذى تطوى أوراقه معانى أكثر مما تظهر، تكظم وتدثر،
فالحضور السمرقندى مبسوط للكافة، للقاصى، للدانى، كنا،
أنا وهى نقف فى الباحة منتظرين رفاق الرحلة، هى على مقربة
بجوارى، لبشرتها مذاق القشدة التى تغطى اللبن فى وعاء
فخارى، تدس يديها فى جيبي معطفها، أما الصباح فوقته من
هذه الاوقات التى تمد فى الأجل. وتقصى الهواجم المكدره
للأفئدة، وتعد بالوصول والبشر، كنا فى انتظار العربة التى
ستقلنا إلى مدرسة بيبى غانم. زوجة تيمور، إلى مجموعة شاه
زند، الأمير الحى، بين كتيبى مجلد يسجلها من كافة زواياها.
كان عندى انفعالى الخاص، لقرب رؤيتى ووقفتى على ما
طالعه صوراً وسطوراً، تحين لحظة أقف فيها لأقرأ فاتحة
الكتاب على شاه زند. قثم ابن العباس. ابن عم الرسول الكريم،
تقول مخطوطات التاريخ إنه استشهد هنا فى العام السابع
والخمسین لهجرة حبيبنا وشفيعنا، لكنهم يوقنون هنا أنه بعد
سقوطه شهيدا. حمل رأسه بين يديه، وأوى إلى بئر عميقة، وفى
قاع البئر تبدأ طرق شتى إلى حدائق لا يحيط بها بصر، ولا
يدركها رحيل وإن طال. وأنه مازال حيا يرزق فى إحداها!

كان قصدنا مدرسة أولوج بك. ومزارات شتى، كنا نتأهب
للتوجه إليها مع أنها تلوح من هنا. يجيء العصر العتيق إليك،

يلحقك أينما كنت فى سمرقند، ولا يدعك تمضى إليه. يوطرك،
يتبعك، يتقدمك، ويسلك الطريق إلى شعاب الذاكرة والتلايف
التي لا تبين، أما حضورها الكثيف فأضفى معنى فريدا على
هذا كله، كان ما أراه من معمار وتكوين فى الفائت، أما هى
فإنها الآتى عينه، فى الضوء السمرقندى رأيت لوناً جديدا
لخصلات شعرها، فإن قلت إنه أسود صدقت، وإن وصفته
بالنحاسى أصبت، وإن لمحت فيه شقرة فما كذبت، ينهل من
الصفات، والوان الطيف. وسر الشفق، قلت فتوددت..

شعرك جميل

واجهتنى. بجانب وجهها الأيمن

كان أطول

ثم قالت فى نبرة أنثوية:

هل يعجبك هكذا؟

تسألنى أنا؟ هى توجه إلى يا أخى استفسارا عن رأى؟
لا... مهلا، ليس بهذه العجلة. أوشك بهت أن يطوينى، لكننى
أقلت منه بقولى:

إنه رائع.

بدا منى تحن، فى العربة نأت عنى، حرصت على الجلوس
فى الصفوف الخلفية حتى أنهل منها. حتى لا تغرب عنى،

عرفت من صاحبي أننا قبل بدء الجولة سنتجه إلى اجتماع، حيث تلقى كلمات ترحيب ومودة، اخترقنا شارع مكسيم جوركي، على جانبيه يتداخل القديم بالحديث، تتماس الأزمئة. وتتوالج أحيانا. بعض الأزياء الأوزيكية منحدرة من عصور تعرف يا أخى مدى حنيني إليها وتفكرى بها، توقفنا أمام مبنى شيد فى الأربعينيات، سارعت بمفارقة مقعدى حتى اقترب منها، جاورتها، التفتت إلى، كأنها تحدث نفسها قالت:

لا أحب هذه الاجتماعات..

حرت. هل يجوز لى الرد؟ هل أرجوها البقاء، أو أعرض صحبتى، وددت لو طلبت إليها. ألا تغيب عنى، لكن أجم لسانى تطلعت إلى، كررت.. أضيق بالخطب.

ثم قالت:

لن أذهب.

أطرقت مفكرا فى مردود اختفائى من الاجتماع، وصحة هذا من عدمه، وعندما تطلعت صوبها لم ألقها، لا أدري كيف اختفت، عند دخولى القاعة لمحت الهندى وصحبه، لم تكن معهم. أصغيت شاردا إلى التصفيق، إلى الترجمة الفورية، إلى ملامح الحضور، إلى الدقائق المتعاقبة، يهتصرون سؤال، أين هى الآن؟ لماذا نفرت هكذا؟ لماذا أسفرت عن هذا الجموح؟ هل بدر منى شيء؟ لماذا أحمل نفسى الوزر؟ لكنه دأبى يا أخى.

عندما تركت العربية مبتعدة سرى عندي خواء. أين هي؟ هل تمضى عبر آثار المدينة منفردة؟ أم أنها بصحبة من أجهل، وما نفورها إلا حجة لانصرافها لیتنى تخلت عن الخطه، لیتنى تبعته، لیتنى لم أتوقف لأحتسب الأفعال وردودها. لیتنى مشيت فى أثرها، لا أقرب إلا بالقدر الذى تشاء لو أنها راغبة فى الانفراد، لا أتکلم إلا إذا سألت: ولا أجاورها إلا إذا أشارت، أما أن تختفى هكذا، أن يمضى وقت لا أراها فيه. أن تنأى عن دائرة بصرى، المجال ضيق. اغتممت، عزيت نفسى أنها تتحرك فى سمرقند. ترى القباب ذاتها. وتقف أمام واجهات المدارس عينها. لكم رغبت أن أراها بصحبته. أن أفسر لها كيفية التلقى عندي، أن أحدثها عن فريدة الخط العربى المحيط بالأفاريز، النقوش الحافة، والحروف المتداخلة، جمال حرف الألف الذى بلغ طوله مترين كاملين عند قاعدة قبة بيى غانم أقرأ لها الآيات القرآنية. وأفسر قدر اجتهدى ما غمض من معانيها.. فجأة تباغتني هواجس مرة.

أحقا هي بمفردها الآن؟

إذا كانت فى صحبة، فمن؟

أهو أحد هؤلاء الأجانب؟ إنهم أقرب إليها، والطرق التى تبدأ من عندهم تجاهها أقصر وأوجز، فالميراث دان. والمزاج متشابه. أما أنا فقادى من جهات قصية، وما هى إلا طرح مغاير لما عرفته، فلماذا أطرق دربا وعرا، ولماذا ألقى بنفسى فى هجير صعب؟.

لكن.. قبل هذا كله، لماذا أنحى بالعتب. باللوم، وكأن المواقف قائمة. والعهود أخذت بيننا؟ وكأن الود متبادل. وهنا تذكرت واحدا ممن أجلمهم، وأقتدى بهم، وأحفظ لهم المكانة، أحب في أول شبابه بنية أوجت إليه بما أوجت. هام بها حتى كاد يهلك. أفنى من ذاته ما أفنى، وأبدى من فيضه ما أبدى، غير أنها لم تعباً، ومضت مقتترنة بآخر، وانقطع بها العهد. أصغيت إلى محدثي، كان يستعيد أمرا مضى عليه أربعون عاما وازدادوا سبعا، ولكن في صوته أسينة لاتخفى. لمت البنية، واتكأت على سيرتها بالكلام الشديد، إلا أنه ضحك ضحكة صافية لها جلجلة.. قال:

وما ذنبها هي؟ أنا أحببتها، ولم تحبني.. ما ذنبها؟

استعدت هذا وكدت أضحك ساخرا في نفسى. لكنى لم أقدر فالأمر جد. لكننى تساءلت، لماذا أسىء الظن بها، ربما رغبت حقا في الانفراد، ألم تكن صباح اليوم ساهمة، كدت أستفسر من الهندى إلا أننى أحجمت، مضيئا عبر طرق تستقيم وتنحنى، سعدنا تلالا ممهدة، ورأيت سمرقند منبسطة، قبابا تحاور قباب، وماذن تشير إلى جواهر السماء، منها المكتمل، والمقطوش، أما المداخل الشاهقة فتحاكى ديوان كسرى، لو أنها بصحبتى لقلت لها ذلك، لاحظت قلة نشاطى وهبوطى، حتى صرت قاب قوسين أو أدنى من وجومى، فما أسرع الومضة!.. وما أقل عمر الشهب!.. لذت من ضيقى

بسمرقند، أوغلت فى المنمنمات، فى نقوش الجدران، فى حركة
البشر الذين لم تتبدل أزيائهم منذ قدم سحيق، فى السوق
الكبيرة، ورأيت فى قطع الجبن فرادة. وفى الخبز الذى فضلته
عما عداه خارج ديارى، وعندما وصلنا إلى المرتفع، حيث
مرصد أولوج بك. انقلبت السماء رمادية، وهبت رياح باردة،
وتوارى إدراكى للبهجة الذى عرفته عند صحوى، بدأ النفق
المؤدى إلى مكان المنظار غريب التكوين، كأنه يفضى إلى فراغ
داخل جوف الأرض، طفت بالقبة، والمعرض الحديث المقام بها،
وتأملت صور أبى بكر الخوارزمى، والشيخ الرئيس ابن سينا،
والبيرونى، ما نسبة الخيال إلى الحقيقة؟ إلى أى أصول استند
الرسام المجهول لى؟ رأيت رسوم عالم الفلك، والطبيب،
والمنجم، ولم أر توقيعا حتى لمن شادوا هذه العمائر التى
تجاوزت هشاشة البقاء، حتى مدرسة السلطان حسن، ظل اسم
من صممها ونفذها مجهولا حتى سنوات قريبة، عندما وجدوا
ذكره متواريا فى الأعلى القصوى، لماذا يتوارى المعماريون،
لماذا تبقى أسماء البنائين مجهولة؟ يحمل الهرم اسم خوفو،
تحمل المدرسة الشاهقة اسم زوجة تيمور؟ لكن أنى لنا معرفة
من انهار عليهم الردم فجأة، أو من تعلقوا على ارتفاعات
شاهقة لتثبيت لون، أو خط حرف؟ هيروغليفيا كان يا أخى أو
عربيا، لكم وددت يا صاحبى أن أسمعها انطباعاتى، أن ألفظ
قربها ما يجول بخاطرى، أن أقف إلى جوارها لحظة تجول
نظرى عبر الأرض الممتدة، المتموجة، متسائلا عن البقعة

المجهولة التى يرقد فيها الشيخ الرئيس؟ أين مثواه: كيف تاهت
 عنه الذاكرة التى احتفظت بهذه العمائر، ما بقى منها وما
 اندثر، أين عاش هنا؟ أين أبدى المجاهدة. أين حصل العلم؟ لو
 ألم بحالى وما صرت إليه فى دياره بعدما عرفتته من جذوة
 العشق لنظم رسالة مطولة فى نأى الحبيب عن مجال البصر.
 أو لخصص فصلا عن التلاقى والتفرق فى «الشفاء» والمنطق!
 أين سعى؟ أين ولى وجهه، فى أى موضع كانت داره التى كابد
 فيها السهر؟ أما البيرونى فكنت مع استغراقى أستدل على
 الجهة التى سلكها عندما قصد الهند. تمنيت لو أنها بصحبتي
 يا أختى لأطلعها على معرفتى بهؤلاء لو أنها قربى وأنا أحقق
 إلى ملامح الساعين حولى، ربما انحدر هذا من أحدهم، لا هو
 يدري، ولا غيره، أيتعقب الإنسان جذوره البعيدة؟ إذن أين كان
 جدى منذ ألف حول، وأين كان جدها فى ذات الحقبة؟ حاولت
 أن أوغل فى النقوش، أن ألوذ بالتصاميم بالخطوط المتداخلة،
 كنت أبتعث لحظات نائية، وأقابل كلا منها بظل مما أرى، أو
 مئذنة، أو مدخل مؤد ما أجوز، حاولت رؤية مالا يمكن رؤيته
 تخفيفا لما أحدثه عندي ابتعادها المفاجئ. وفى إحدى الزوايا
 الظليلة انتحيت ركنا قصيا، وبصوت مهموس، مسموع
 عاتبها.

فالبيريا.. أين أنت؟

وعندما اقترب منظم الجولة منى، من صاحبي، واقترح
 علينا تدبير عربة تمضى بنا إلى ضاحية خرتنك، حيث ضريح

الإمام البخارى. أبدى صاحبي حرارة وحسن استقبال
 للاقتراح، وطلب مجيء المعمارى الجزائرى معنا، أمر يسره،
 صرنا أربعة. جاء معنا دليل أوزبكي، ترجلنا، جزنا السور
 الخارجى، والممر المرصع بالفسيفساء الملونة وأشجار الحديقة.
 والباب المؤدى مباشرة. حتى إذا وقفت أمام الشاهد الرخامى،
 ويسطت الراحتين. قرأت الفاتحة، ثم قرأت مادون من تاريخ
 ميلاد، وأخبار رحيل صوب الأفاق النائية لتحصيل العلم،
 تمتعت أحمل للراقد الجليل تحية كل حبيب وقريب لم يمكنه
 المجىء إلى تلك الأصقاع، ومنهم بالطبع أنت يا أخى الأعز،
 فارقت الضريح والمسجد المجاور متهددا، فهذا موضع لن
 أجيء إليه مرة أخرى، وهذا كريم جليل لن أقف بقرية ثانية. أما
 رطوبة المسجد، وظلاله، ورائحة السجاد، القديم والجير الذى
 طليت به الجدران، فقد بلل هذا جفاف روحى، وأثار عندى
 شجنا غامضا.

تعرف يا أخى حديثى عن لحظات دقاق لا تروح من
 الحضرة القلبية أو الذهنية، لا يغيب عبيرها، لن أنسى من هذه
 الطلة، تلك الوقفة، الزيارة، أمورا عديدة، فمن ذلك لوان،
 وعبارة، وحركة؛ أما اللوان، فاعلم أنهما الأبيض والأخضر،
 بياض رخام الضريح والفراغ المصفى، ونضرة الحديقة
 المحيطة، ولون الخشب المظلل لوحدة القبر، أما العبارة
 فمنقوشة على الشاهد، أذكر لك نصها:

«..وجاب البلاد، ونزل الأمصار، حتى بلغ شيوخه ألفا
وزيادة..».

وقد لاقت عند زميلنا المعماري الجزائري نفس القبول
وجميل التلقى، حتى طلبت منه ترديدها بصوت عال، كما شاء
أن أقرأها له، والجزائري هذا صاحب غربة ورفيق سفر، إلا أن
ما قربني منه هواه الزائد بالمعمار القديم. وعشقه لفاس،
وتلمسان، وقسنطينة، ورغبته في زيارة القاهرة العتيقة، قلت له
إنه إذا جاء يوما فساكون دليله. وقال لي إذا جئت الجزائر
فسيكون عيني الفاحصتين. وكان ما بدا منه، وما ظهر مني لب
المودة.

أما الحركة التي لن تروح من عندي أبدا. فمجيء شيخ
أوزيكي، جبته خضراء وحزام خصره حريري عريض. منقوش،
وعمامته بيضاء، أما لحيته فكثة، جثا على مقربة. ولا مس
ركبتيه بيديه، ثم بدأ تلاوة آيات بينات من سورة يس، وتلك
سورة مباركة اعتدت ترديدها عند مثنوى أمي وأبي، رحمهما
الله رحمة واسعة! فارقت ضريح الإمام، وكان الطريق
الخارجي مزدحما، وقوم قادمين، ساعين للزيارة، ونهر
زارافشان متدفقا بمياهه. ومزارع قطن شاسعة، أما داخلي
فزاخر بفيض، وتوق، وشدة فقد، لو أنها بالصحبة!

عللت النفس يا أخى برؤيتها في المزرعة الجماعية، إذ
تجددت المصدر، وسلام ميين، أما السماء فلاحت أبدية،

منبسطة، فيها أصداء القباب السمرقندية الزرقاء، كذا شهوق
 المداخل المؤدية، ومنمنمات الضوء المنبعثة من عينيها. وراء
 بشرتها. وشموخ نظرتها الجانبية، كنت متحسرا على كل لحظة
 تمضى وهى بعيدة عن النظر، على وشك أن أضع يدي على
 سريان عبيرها خلال زهر الليمون، وظلال الأشجار، وترقرق
 أجنحة الفراشات المحمومة، جلنا عبر المزروعات المغطاة، وقفت
 عند قنوات المياه، ولأمر خفى، حننت إلى الإسكندرية، ورسوخ
 قلعة قايتباي، ومداميكها الحجرية المواجهة لصخب الموج
 وعنف هبوب الرياح وفوق الأبراج حراس أشداء، وأصداء
 صيحات متجاوبة، ورجال منقطعون عن الأهل والولد، مرابطون
 تحسبا لهجمة مفاجئة تجيء عبر الفضاء البحرى الذى يفغر
 فاه، فكرت فى مدينة سلاء هناك أقصى الغرب، وشاطئ
 المحيط، قديم انقطع فيه مجاهدون أوائل، وشرفة حجرية كل ما
 تبقى من حصن زال معظمه عند شاطئ تونس، وردت على
 أعمدة مرمية غارقة تحت سطح بحر ناء، ومنحنى فى سمرقند
 وقعدة لرجلين يرقبان مغيب الشمس إيدانا بتناول إفطارهما
 الرمضاني. فى فؤادى تتشعب طرق، ومن غياهب ذاكرتى تفد
 قوافل الصور. كذا حننت إلى نغم متمهل، يسرى باعثا أحزاني
 جلت مع الصخب. وتذوقنا شرائح الليمون المرشوشة بذرات
 السكر وقطوف العنب، متجعد الحبات بعد تمام النضج،
 والتفاتتى فيها طموح لتجاوز الأطر المكانية، وعندما لاح رفاق
 الرحلة من بعيد ركض بعضى فى أثر بعض، غير أننى حدث

ببصرى، إما لأننى رغبت فى تأجيل رؤيتها شأن من يؤجل
المتعة، وإما خشية ألا تكون بصحبته فآوثر البقاء فى مجال
التوقع زمنًا، مرجئًا القطع. وبتر اليقين، غير أن خواء سرى
عندى، لو أنها بينهم لتوالت داخلى إشارات حتى وإن لم
ألمحها، وعندما دنوا وصافحوا، كتمت استفسارى، تصدع
وقتى، وحجبت عنى موجودات شتى من مجال الرؤية، أثرت
الانفراد، حتى إذا انتهت الزيارة وليت وجهى شطر الطريق
وغبت فى الظنون. عند المنحنى المؤدى إلى مدرسة بيبى غانم،
فوجئت بصاحبى يقف، يدق زجاج النافذة..

«فالىريا.. فالىريا..»

يلتفت إلى، وكأنه يعى قضيتى. يشير إلى الطريق..

«هاهى..»

أتابع إشارته، يتدفق القوم أمام الواجهة الشاهقة، على
مرأى من النصب الفسيفسائى للزمن، أين هى؟ أين؟ تمضى
السيارة، لم أرها، مطامح شتى، وأودية عتيقة، معاطف، أغطية
رأس؛ طفل يحمل زهوراً، فتارين صغيرة. الطريق منحدر، آثار
المدينة تحدد مسارات الطرق، الأشجار باسقة، لكن ما من
توليب، لا يبدو إلا معها، ولا يلوح إلا بقربها، يلتفت صاحبى
إلى. قال مؤكداً..

«كانت تمشى هنا..»

تساءلت..

«بمفردها؟»

مط شفتيه.

«لا أدري.. لمحتها هي..»

هل رآها بصحبة أحدهم ويخفى عني؟ من أين قدمت، وإلى أين؟ وكيف أمضت الساعات الماضية؟ توقفت العربية أمام مدخل السوق، باعة الجبن الحلوم. والسجق، والخبز الأوزيكي، منتفخ الحواف، أخمص الوسط، ناصع الباطن، قيل لنا إن الوقت المتاح نصف ساعة، أبطأت الخطى، مضى صاحبي مع الجرائري، أثرت البقاء والمشى بمفردي، ساقطع الشارع حتى نهايته، ثم أعبر لأعود من الرصيف المقابل، لو أنى أراها فجأة، سأتوقف أمامها. أثبتها شكوى فقدى لها، وأرجوها ألا تغيب مرة أخرى. فالمتاح من الزمن غير مساعد. توزع بصرى ما بين الواجهات والمارة، مررت على ثياب مزركشة، واشترت عطرًا محليًا ذا فريدة. وقلبت أغطية رأس ملونة مرصعة، منمنمة، وحافظات جلدية عليها صور محاربين قدامى، وحيوانات، وطيور كواسر، رأيت امرأة جميلة. متصلة الحاجبين، تماسمت نظراتها بنظراتي، ومضت ومضيت، استنفدت الوقت المحدد، أسرعت الخطى، محرك العربية دائر، حتى فى المطعم لم أرها،

ولما سألت ناتاشا الهادئة قالت إنها لم ترها، وإنها لم تصحبهم إلى الجامعة صباح اليوم. قالت إنها تفضل الانزواء والوحدة، وإنها مضت تجول بمفردها في المدينة، قلت: لكننا سنرحل بعد ساعة إلى طشقند.

قالت: لابد أنها تحسب وقتها.

قلت: أتعرف هي ميعاد الرحيل؟

قالت: طبعا..

ابتسمت ناتاشا. لاح في عينيها معنى، قالت:

«كانت فاليريا روح السهرة أول أمس...».

طالعتها بعينين أسيانتين، تابعت هي..

«إنها تفيض حيوية».

أومأت مؤكدا ما قالت، غير غافل عن إشارات أبدتها بملامحها. اعلم يا أخى أن العصر والبرد القارس وأصدقاء المدينة الغامضة على نائم ولفتنى بوحدة، أما إفتقادها يوما بأكمله فضايف الخواء والوحشة، صرت أتعجل الرحيل، الوصول إلى المطار، هناك سأراها بالقطع، غير أن الأمر لم يأت بما توقعته يا أخى الكريم. فعندما دنا الوقت، وتحركت السيارة صوب المطار، كانت غيببتها مستمرة، أيعنى ذلك تخلفها هنا؟ أضلت طريقها أو أصابها مكروه، أو التقت بنفر

من قومها . شغلوها ورتبوا لها ترتيبا مغايرا . رحت أخاطبها على البعد: لم يصلك ما عندي ولم تلمحى ما يمر بى لم تدريكى، ولو أنت أطلعت على قبس لما ضيعت يوما كاملا لم أرك، لم أملك فيه . أوليت ظهري لسمرقند، عاصمة تيمور، لأرض استعرض فوقها جيوشه قبل خروجه إلى العالم غازيا، مرة إلى الشام، ومرة إلى الهند، وآخر الخرجات إلى الصين . أوليت ظهري لطوابير الغنائم، للسبايا الجميلات . لأولوج بك الفلكى . للخوارزمى، لثوى ابن سينا المجهول، لليال متوالية تطلعت فيها عيون متفحصة للسماوات العلا، لمقرية مندثرة فى وادٍ بعيد هنا أوى إليها يوما بناء أجهله، أو رسام لا أعرفه، أو قاصد سبيل متغرب عن موطنه، كان الغروب يدنو، والمطار ممتدا، فيه شئ من لا نهائية الصحراء، وأبدية الوقت، ومما تعجبت له عند مطالعتى تصميم المدينة، أن هذا المطار أقيم فى نفس موضع الباب الشمالى الذى كان يخرج منه القاصدون بخارى، فهذا موضع مفارقة، ومكان رحيل دائم، اعلم يا صاحبى أن سمرقند البالية كان لها أربعة أبواب، كل منها يقابل جهة أصلية، فالشرقى يؤدى إلى الصين البعيدة، والغربى سمى بباب النوبهار ولم أعرف معنى ذلك، أما باب كش، أو الباب الكبير، فكان يؤدى إلى موطن تيمور الأسمى إلى مسقط رأسه، وهذا مكان الرابع حيث وقفت قلقا . أسفا . أرقب طلعتها أو قدمها، سألت صاحبى عما يظنه سببا لغيابها . أبدى دهشة، قال إنها محيرة، صمت لحظات ثم قال، إنها تحب

الاهتمام بها، أن تكون محورا، ومركزا، وقبلة للأناظر، ولا بد أنها ستظهر في اللحظة الأخيرة بعد أن يكون الجميع شغلوا بها.

هذا التفسير يا أخى لم يرضنى، لم يعجبنى، إنها محور دون أن تقصد، وبؤرة بغير تعمد، لحت الهنذى وصحبه، سارعت، استفسرت منه ضاحكا - كأنى لا أبالى، كأن سؤالى عرضى - عن مرافقتهم الجميلة، فقال إنه لم يرها منذ صباح اليوم. ابتعدت رحت وجئت، عدت أقول لصاحبى إن ما أقدمت عليه يعد استهتارا، هل لديها تكاليف العودة إلى موسكو البعيدة؟ كرر صاحبى، إنها محيرة؛ انصرفت عنه، قلت لناتاشا، يبدو أن سمرقند أعجبت فاليريا. مطت شفتيها، سألتها، ألم تكن بصحبتها فى الحجرة؟ ألم ترها عندما حزمت حقيبتها؟ قالت إنها لم تكن فى الغرفة. أما حاجاتها فكانت مبعثرة، جاء صاحبى، أفضى إلى نبأ. أرسلوا عرية للبحث عنها..

قلت:

«لا أدري كيف ستقضى الأيام هنا بمفردها؟».

ردد..

«إنها غريبة».

ثم ابتسم، ثم قال..

«تبدو مهموما لغيابها».

جاوبته باختصار.

«إن الأمر جدا».

مع اكتمال المغيب. أذاب الغسق ورمادية الشتاء والرياح الباردة حدود المطار المادية، فبدأ متصلا بالغيب، بالمجهول، وفى الأعالي تتغير السماء السمرقندية بسرعة فى مواجهة الليل المقبل، اعلم يا أخى أننى عندما أفارق أرضا رأيتهأ أول مرة أتسائل. هل سأراها مرة أخرى؟ تذكر يا أخى رحيلنا عن فاس، عندما ضمتنا صحبة معا، أتذكر كيف كنت أفارق الطرقات والزنقات والساحات الصغيرة وقنوات المياه الجارية، كذا واجهات البيوت، كنت أتراجع بظهرى، حتى كدت أصطدم غير مرة بالعابرين. لم أكن أريد مفارقة الزوايا، والعطوف، والنواصى التى أحسبت، هذا حالى أيضا فى لحظاتي السمرقندية الأخيرة، وإن مازج أمرى هنا انشغالى بتلك البنية، أضاف ذلك وجدا على وجدى، كانت الثوانى تنسل، والقوم وقوف، لا يبدو عليهم اهتمام بغيابها، أنه انتظارهم، عادى، لا ترقب فيه ولا قلق، عدا رجل رافقنا من طشقند. كان مسئولا عن الرحلة، بدا مشغولا لغيابها ولكن من وجهة غير وجهتى، ومن منظور يخالف منظورى، فجأة سرت حركة بين الجمع، امسك كل منهم بحقيبة اليد. أو ما سيصحبه إلى الطائرة، لم أدر من أشار ببدة الحركة، غير أن جنديا أسرع الخطى، وفتح

البوابة الحديدية الصغيرة التي تتخلل السور، بسط ذراعه فوقها، كأنه يشير إلينا: تقدموا. كان علينا أن نعبّر واحداً بعد الآخر، بدأ اتجاهنا عبر المطار يتخذ هيئة طابور غير منتظم، أبطأت الخطى، بل توقفت لحظات حتى إن صاحبي تطلع إلى مُستفسراً، مازحاً قال.

«هل قررت البقاء هنا؟».

لو أنك مكانه يا أخى، لو بصحبتى، لسألتنى بنفس اللهجة، فالكت بمفردى يبدو مستحيلاً، فى رحلة جرى ترتيب مراحلها وفقاً لنظام محكم، أما المسافة بين سمرقند وعاصمة البلاد فشاسعة غير أنك يا أخى تعرفنى أكثر، إذ بدأ الخاطر عندى، وتصاعد. أن أبقي حتى ألقاها، ألا أرحل بدونها، ولم يبق إلا انسحابى خفية، أو إعلانهم بقرارى، كيف أمضى وهى ليست فى مجال البصر، أرقبها، وأتملاها، وأتمناها، سأرجع إلى المدينة، إلى الفندق، وعندما ألتقى بها، ستبدو الدهشة فى ذرات ضوءها، عندئذ لا أدري، هل سأبقى صامتاً لثوان، أم أشرح لها ما فعلت؟ هل سيصلها جواى واتقادى لحظتها؟ عندئذ أقول لها إن تخلفى سيثير اهتمامهم، فأنا غريب، محدود المدة، وسيبدون لى من تسهيلات العودة مالن تلقاه هى، لذا أثرت التخلف والبحث عنها خشية أن. تصعب عودتها..

لكن!

تعرف يا أخى أنه عند ورود كلمة لكن على الخاطر تبطئ مسارات الأمور، تتمهل النوايا، ويلوح مفترق. ماذا سيقولون،

وكيف يفسرون بقائي من أجلها: أنا من لم أجهز بعد بالقول أمامها ولم أصرح. كيف أخاطر بالبقاء في مدينة أجهل لغة أهلها، الأمر أصعب وأعقد، هكذا رحت وجئت، درت على وترددت داخلي، أقلعت صوب جهاتي، فما يكاد شطر مني يولى القصد تجاهي، حتى يرتد شطر ثان مبتعدا عني، وما إن أوشك على الرسو عند ساحل ذاتي حتى يهتز قاربي. يختل. فأنأى وأقترب. أميل وأعتدل، لم أحسم، وهكذا مضيت مساقا صوب الطائرة. آخر القاصدين، وأتبع الراحلين، متثاقلا، كارها مساري، إذن سنقضي ليلتنا المقبلة في طشقند بدونها، لن تصبحنا إلى العاصمة فكأن السعى في مفازة شجواء إلى نهاية الاستيحاش، قبل أن ألج جوف الطائرة تلفت، هناك عند البوابة يقف جنديان، عند مدخل البوابة يتطلعان صوب نقطة ما. تواريت في المقعد الضيق غير عابئ بتطلع إحداهن إلى مبتسمة وكأنها تدرك ما بي ساخرة، لم أقعد يجوار أحد. وضعت حقيبتى الصغيرة بجواري، من يدري، ربما جاءت في اللحظة الأخيرة، عند دخولها ترى المقعد الشاغر فأجاورها مدة ساعتين. تطلعت عبر النافذة الرمادية، غبش رمادي متزايد. أصداء المدينة التي لا تلوح لناظري، القريبة، البعيدة الآن.

لكن .. ماذا؟

هل تخف لهفة المشتاق؟ هل ينزاح الثقل؟ لقيت نفسي يا أخی يردد بصوت هامس، عاتب، متدفق النظر إليها حيث لاحت، ويانت..

لماذا فاليريا؟ لماذا لماذا؟

أعاتبها، أهدهدها، ضاما إلى ما يشع منها لهفة وخوفا إثر العثور عليها فى اللحظات الأولى، روم. حان، متهدج، غير مصدق، فأحرق ألول، ثم أقربها، مستعيضا عن النظر بالتقريب، بالضم، بينما عتابى المنطوق لم ينقطع. تعرف يا صاحبي أن الإنسان إذا انفرد بنفسه يرتفع صوته أحيانا. أما مغنياً أو محدثاً، ربما بدافع خفى، قديم من الأزمنة المندثرة. إذ يلقي نفسه وحيدا فى غابة، أو قفر، محدقة به أخطار شتى، وأفظعها المجهول منها، عندئذ يصرخ ليؤنس فردانيته، ولحظة انبثاق رؤيتها كنت الأشد وحدة، ظهر تكوينها فأنست منه أمنا، أبرزت ورقة للجنديين. صاح شخص كان يقف تحت الطائرة. تجتاز المسافة، لا تعدو إنما تتدقق، موجبات، رخات مطر، رشقات مصوبة تجاهى، أما دخولها فاندفاعة وتفجر نبع، خطوتها الواحدة نقلتها إلى الأمام، تجاوزتنى لم تر المقعد الشاغر بجوارى، صاح الجمع كلهم وناداهم بعضهم باسمها، واستفسر آخرون عن غيابها، وأبدى البعض اهتماما مفاجئا. عداى! لزمت السكينة، وقفت تخلع معطفها، تروض نفار شعرها، ولم تكن إلا مبتسمة، ولم تكن إلا مشعة، ممهورة بالضوء، بالألوان، جلست فغابت عن مجال عيني، وليت وجهى شطر السور، البوابة التى لم تعد موضع ترقبى الآن، السيارة التى مضينا بها فى الصباح إلى ضريح الإمام البخارى، ترى إلى أى مقعد جلست، ليتها مست المكان الذى شغلته، فنلتقى

حيث لم نلتق، قربت وجهى من زجاج النافذة، أرقب جريان الأرض. لحظة انفصالنا عنها، هذه سمرقند من عل، لم أدر هذه البيوت، وإلى أى مسجد تنتمى هذه القبة القائمة فوق التل البعيد؟ بدأ سحب، تزايدت كثافته، لم أعد ألمح شيئا. غربت سمرقند فى الليل والغيوم، كنت راضيا، مرضيا كأنى ارتحت من لهات أعقب ركضا. لم أتطلع تجاهها، لم أحد بنظرى، فما أعجب وما أغرب!. إلا أننى عند وصولنا الفندق، بعد اتجاهنا إلى الغرف، بعد نزولى إلى المطعم، بعد دخولها، قمت إليها، دعوتها فلبت، قلت لها إننا غدا سنكون فى موسكو، ينفذ الإطار، وبعد أيام ثلاثة سافارق إلى موطنى. ومن يدرى. قد لا أعود إلى هذه الديار مرة أخرى، ما أريده دقائق كى أحدثها، بمعزل، بمنأى، إننى أدعوها إلى غرفتى.

توقفت متهدجا، إنها ساهمة، مدت أصبعها..

نتحدث!

بدا لى صوتها يحمل قليلا من الموافقة، وكثيرا من النذر..

قلت:

بالطبع..

قالت:

ولماذا لا نتحدث فى غرفتى؟

قلت:

فى أى مكان تشائين..

ثم قلت:

قصدي الانفراد.

قالت:

إذن.. سأنتظرك بعد صعودي..

هنا صارت دقات قلبي دوارج، حتى أنهكت بما يجرى
داخلي مع أنى وثاب، فاعفر لى يا أخى الأعز إسرافى فى
أمرى..

توق

.. اعلم يا أخى الحبيب، الصاحب، القريب، إن أصعب اللحظات ما يتم فيها التأهب، حين يللم المرء شتاته. يحاول أن يجيء من هنا وهناك بما يمكن أن يعنيه ويقويه. الأشق انتظار الفعل، وليس الفعل ذاته، اعلم أن أوعر ما مر بي فى مرات سجنى توقع الضرب والأذى، وليس التعذيب عينه، أثقل ما عرفتة أثناء القتال ما يسبق بدء الهجوم وليس الاشتباك. أصعب مراحل المرض الجهل به، ما من مرة قاربت فيها من أحب إلا وانتابتنى رهبة. وأكثر ما يكون المحبوب وجلا عند مضيه إلى لقاء، إذ ربما يتم الفناء مع اللقاء، فيذهل عما حوله، هذا ما جربته، فما البال إذا كان من خصالى أيضا عيش

اللحظة إما قبل حلولها . وإما بعد انقضائها إما في السابق
وإما في اللاحق، لك إذن تخيل حالي . وما صرت إليه قبل
المضي، أحقا سأنفرد بها؟ هل ألقى نفسي في القريب بهذه
السرعة؟

كيف سأبدأ؟ بأى جمل أفتتح حديثي؟ ماذا أقول؟ بل
الأدهى، ماذا أريد؟ كوكبها أسرنى، هذا حق.

أدور في فللكها؟

هذا حق.

ها هي الفرصة تتاح الآن لأفسر، وربما أعقب ذلك أمر، هل
أرمى إلى إعلان حقيقة ولهى وجذبي؟ نعم. لكن أيكفى هذا؟

كلا ثم كلا!

إنن.. هل أبغى الفناء؟ الاتجاد؟ لا أدري، هل أمى ضيق
المدة، ألن أفارق هذه الديار كلها بعد ساعات معدودات؟ فإلام
أرمى؟ أى وصل أبغى؟ وصل عابر؟ هذه لا يطابق كنه حالي
إنن.. مالى أتعلق بالصعب؟ مالى أحاول فتح باب لن أقدر على
رده؟ مالى أوغل في درب قد لا أستبدل على عودتى منه؟ رجت
أقلب أمري، حتى مرت بى لحظات ندمت فيها على سعيتى، مع
تمام وصيى أن الأمر ليس بيدى منه شئ، فألى أية غاية؟ تعرف
يا صاحبتى أننى عندما أكون فى جمع أحتمى بهم منى،
وأحصن منهم دفعا لى. وقديما قالت لى محبوبة همت بها

قدرا، أنت تتكلم حتى لا تتكلم. لحظتها فوجئت، أدركت أنها كشفت بعض سرى، وما أسطره لك يا أخى لم يطلع عليه أحد، ولا أقرب الخلق منى، فهل أنا بحاجة لتنبيهك إلى الكتمان والصون؟ أمل أنك ملبٍ. للمت شظاياى. تناولت لوحة صغيرة، فيروزية اللون، عليها نقش عتيق، حملتها من أزقة قاهرته العتيقة، أبدعها عجوز تجاوز التسعين. آخر جيل المهرة فى النقش والترميم، نوافذ الجص، والأفاريز، والعتبات المؤدية، حملتها معى خلال أسفار عدة، أقسمت ألا أقدمها إلا لمن أرى أنه يستحق، لوحة بسيطة، خلومن أى صدف أو حجر ثمين، لكن لنقشها رقة وترجيح وإيحاء، أن لها الانتقال عنى، تناولت حذرا من حقيبة يدى التى لا تفارقنى، جلت بنظرى فى الحجرة، الحقيبة، الكتب، السرير الذى لم أرقد فوقة بعد، رفعت سماعة الهاتف، عندما جاعنى صوتها بدأ نائيا محاطا بغلالة من ظلال، استعدت مرأى شجرتى التوليب، والغبشة الصباحية. رواحها ومجيئها، منذ لحظة سريانى صوبها..

تعال .. أنا فى انتظارك..

اكتمل تأهيبى، بدأ شروعى، كل ما أريده عند المثل أمامها، عند الانفراد، أن أوصل إليها بعضا مما عندى، أما أن أرحل بهذا التفجر كله فألى جانب أنه حمل ثقيل، فلا شك أنك توافقتنى على ما فى الأمر من ظلم. أن أشعر تجاهها بهذا الدفق كله، ثم امضى دون أن تدرك فأمر فيه عبث بالناموس،

مررت أمام الأبواب، تتوالى الأرقام، وعندما وقفت أخيرا لم
أطرق مباشرة، إنما تطلعت، قديما قيل إن مشاهدة المحبوب
هى أعز مطلوب. وعندها يجب التزام آداب بعينها. منها الثبات
وعدم الالتفات والخشوع والافتناع والخضوع، وتنسم رائحة
المحبوب، لكن من هو مثلى، هل يثبت؟ من قام بثيابه الحريق
كيف يسكن؟ النار التهاب وملكة، فلا بد من الحركة. من هدا
باللقاء قلقة فما هو بعاشق، كيف يصح والعشق كله ظهور،
مددت يدي مرتين ولكننى انثنييت. ثم حزمت أمرى، وعندما
فتحت بدت كنصب أبدى للجمال، للحقيقة الناصعة، لم تكن
مرتدية إلا قميصا أزرق يتيح لعنقها الانسيابى الظهور،
ولصدرها البروز والمناداة. فى اللحظات الأولى أدركتها فى
جملتها، ولم يهدأ قلبى، قعدت بعد أن أشارت إلى، لا أدري
والله يا أخى ما قلت، ترتج ذاكرتى وتغيم على، تعرف تبدد
الكلمات الأولى، حتى ما تفوه به إلى أقرب الخلق منا تصيبه
الذاكرة وتطمسه، أعى الآن اللحظة التى بسطت فيها يدي.
تطلعت إليها بكل ما امتد ورائى من أزمنة قدر لى أن أعيشها.
وأمكنه ارتدتها أو أقمت بها، وأشواق طافت، وأمورى المبهجة،
عندما لمست أصابعى أصابعها وعندما تلامس مشارف
وجودنا الحسى، قبضت يديها، وعبرهما تدفق منى إليها حنو
ورفق وطلب ومودة ورغبة فى القربى، رفعت إليها ابتهاج عيني،
لم أستتر، لم أتوار، لم أبذل الكد لأظهر ما أبطن، كنت أتأهب
للتأهب للاندلاع، كنت أرتد بشرا سويا، أستعيد زمن زهوى

ونضارتي، والله يا أخى، يا صاحب الأيام الصعبة، لم أكن راغباً إلا فى الحومان عند أطرافها. والتحليق بأقصى أفقها، أتطلع إلى مواردها لا غير مع علمى ويقىنى أن فيها ربي، غير أننى رصدت تبديلاً فى ملامحها، كأنها ستنبهنى إلى أمر، بينما لاح عندها ما خيل إلى أنه ندم، أو رغبة فى تدارك أمر فات أوانه، ماذا فى الأمر؟ ألم تقل إن زميلتها ستسهر حتى الفجر، وربما قضت الليلة بغرفة أخرى، ألم تؤكد أنها بمفردها، لكن.. أتدرى ما أفضت به إلى، أتدرى؟ قالت إن صاحبى سيجيء بعد دقائق، إنها دعتة.. لا. سأورد لك ما قالت بالضبط أثناء تراجع قامتها قليلاً..

لكن صاحبك قادم!

بدت لهجتها محيرة، كأنى المسئول عن دعوته، هل أدركت أخيراً، فى هذه اللحظات. دقة وصفاء وعنفوان ما عندي؟ كنت يا أخى أعول على ذكائها البادى، على أمور خفية قربتها منى، متمهلاً سحبت أصابعى، أطرقت حزينا، خائبا، راغبا فى النأى. فى التوارى، فى التوحد، فى الإيغال مبتعداً، على مول تصاعد غضب، أن تأبى هذا حقها، أن ترفض الانفراد بى هذا مشروع. لكن أن تسخر. فهذا صعب على. وعر تحمله، ليتنى لم أجاورها، ليتنى بقيت فى مدارى، لا أحاول الاقتراب، لذت بى، بصمتى، تعرف يا أخى أننى لطول ما عانيت. لشدة ما قاسيت، صرت أتقن إخفاء ما عندي، لا أدع ملمحاً يتسرب إلى

قسماتى، لكم تمنيت بسط نفسى أمامها كل البسط، أن أفض مغاليق شتى، كان الأمر ثقيلًا. ويبدو أنها لمحت بوجهى ما نم عن طويتى، ما جعلها تنظر إلى هذا النظر الطويل. وتعاقت على الأحوال، فمن خيبة أمل، إلى خجل غامض، إلى رغبة فى الرثاء، فى البكاء، حدث بنظري، وليت عنها، هذا مرفأ غير صالح لرسوى، هذا محط غير آمن فلأتجنبه، هذا سراب فلأنتبه. هذا ظل كاذب فلأحذر، فلأمض فى هجيرى المقدر، شرعت فى التهيؤ للانصراف، هنا طرق صاحبى الباب، بدا غير مفاجأ بوجودى، ما أصعب الوقت على وأنا أحاول إسدال الحجب حتى لا يتسرب من أمرى خبر، ترى.. هل أخبرته بحوارى معها، برغبتى فى الانفراد؟ ترى.. هل يضم سخرية منى؟ لم يغلب على خجلي، بل ربما قصصت عليه ما جرى غدا أو بعد غد، أما ونكسى مازال فى بدايته، وأنا ما زلت بعد أعبر تلك اللحظات الفاصلة بين وقوع الجرح وبدء دبيب الألم، فلم أكن قادرا على الجلوس، أو المنادمة، تحركت هى، فتحت حقيبة زرقاء، أخرجت حلوى سمرقندية. قالت إنها لم ترها إلا فى المدينة لم يكن هناك أطباق، إلا تناولت طبقين صغيرين، يتوسط كل منهما كوب زجاجى، وضعتهما فوق المنضدة. لم يفتنى أنها قربتها منى، وأن حركتها فى مجملها متجهة نحوى، فى غمار غمى لاحظت ذلك. كنت قد تراجعت عن الانصراف، لا أخفيك يا أخى أننى لم أشأ تركهما معا، بمفردهما، ستقول إنها الغيرة، أقول يا أخى لو أنك أنت ثالثا تركتهما معا، ستقول

هذا عن شدة تعلق، أقول وهل أعلنت صور تعلقى أو هوأى؟.
المهم يا أخى أننى اقترحت دعوة صاحبنا الجزائري، وأخرى
كانت تظهر وداً لصاحبى، بعد قليل جاء، صرنا خمسة،
أصبحنا جمعا، وهكذا احتमित بهم منهم، أمكننى التوارى إلى
حين، أثناء الحديث التفتت إلى مرات، مرة سألتنى عن صمتى،
ومرة قطبت عينيها متسائلة، ومرة ابتسمت بود وترحاب،
تحاشيت تسديد النظر إليها. أو الدخول معها مباشرة فى
محاورة. حتى إذا ما انقضى وقت قدرت أنه مناسب وقفت
معلنا تعبى، ورغبتى فى الماضى، خاصة وأن سفر الغد طويل.
غير أنها وقفت مقطبة الحاجبين، مشدودة الجبين، طلبت منى
أن أبقى، أبديت ابتسامة لا يحب رؤيتها من يعرفنى. سدت
طريقى، أشارت بيدها صوبى، اكتست ملامحها جدية، قالت
بلهجة تحاكى فيها الخطاب الرسمى..

«أمرك أن تبقى..»

أتبعت ذلك بابتسامة. ولم يغب عنى المعنى البعيد فى إيقاع
صوتها، بحق مالى عليك أمرك أن تبقى، كما انتبعت إلى
دلالها. تطلعت إلى الصحب، لبيت، عدت إلى مكانى، لم أدر
كيف مضى الوقت، ولكننى عاودت إبداء رغبتى فى الانصراف،
لم تتن عزمى فى هذه المرة نظراتها الملومة، ولم يلح على أحد،
بل إن الجزائري قام واقفا، قال إنه يود الذهاب أيضا، عندئذ
تأهب الجمع كله. كنت أول الخارجين، وعند اجتيازى الباب

أدرت بصرى، لمحتها واقفة، متطلعة نحوى، وحيدة تماما، عند
المصعد مال على صاحبي..

«أقترح عليك العودة».

بوغت. تطلعت إليه متسائلا..

«عند وصولك غرفتك. اطلبها فى الهاتف، و ..

قلت باختصار

«لا أرغب»

«يا أخى، ألم تخط فى عينيها اهتمامك بك، نظراتها إليك..»
نظرت إليه وكأنى بعيد..

«إننى متعب..»

بدا متعجبا، مضيت إلى غرفتى، مرتد النوايا، خاسئ
الخطى، راغبا فى الانزواء. قعدت عند حافة الفراش منحنيا.
ممسكا اللوحة الجصية، لم تتح لى فرصة حتى أقدمها، لا
أرغب شهر هداياى فى حضور الآخرين، أزحت ثيابى. اطفأت
المصباح الحاد نافذ الضوء، رددت: آخر ليلة فى آسيا
الوسطى. ثم فكرت: فى أى اتجاه أسير صوب مدينتى؟ إلى
دروبي التى أعرفها. فى اتجاه هذا الجدار أم ذاك؟ لو مددت
خطا مستقيما من نقطة رقادى هذه، بدايته هنا ومنتهاه فى
القاهرة، كم يبلغ طوله؟ هذه الأرض المقام فوقها الفندق، من

وطئها؟ هل داستها خيول جنكيز خان؟ جيوش تيمور، أم كانت محطاً لقوافل تجار الحرير. لماذا تبدو السماء هنا أرحب، محسوس انبساطها حتى وإن لم تقع عليها العينان، أما في بخارى فمحيطه بالمدينة. تلفها من كل جهة، ولا تنبسط فوقها، أما في سمرقند فتتخللها الأعمدة والمداخل والقباب والنقوش والآيات البينات. استعدت انحدار طريق سمرقندى، وشرفة مقهى بخارى ساعة الصباح، وقبة توشك على الاتحاد بالفراغ الصاعد لزرقه ألوانها، تقلبت مرة ذات اليمين، ومرة إلى الشمال، ثم قمت قاعداً فى فراشى..

أنا فى الطابق السادس. هى فى العاشر. غرفتى أول المرمر، غرفتها آخر المرمر من الجهة الأخرى، عبثاً حاولت طرحها، اقصاءها عنى، عبثاً لجوئى إلى ما تصورت أنه تداعيات ما قبل النوم، بدت خواطرى ويواهدى كحظات سكون الماء قبل غليانه، اهانتنى، سخرت منى، كيف قبلت البقاء بعد ذلك؟ تطلعت إلى الهاتف، أيمكن أن أصغى إلى صوتها فى هذه اللحظات، ألا تزال بمفردها أم عاد إليها أحدهم؟ إنى مرهق، متعب، مكدود، راحل غداً، ولأنى منكسر، معكوس الخاطر يا صاحبى فقد أنتابنى رثاء لذاتى، ورغبة فى نعى أحوالى. وفى مثل هذه اللحظات يتذكر الإنسان سعيه فى أوقات ضعفه. لم أكن تعباً بإرهاق يوم أو يومين، ليس بتأثير خيبة. لكن بما أحمله، بترائى كله، أستعيد رقادى إثر مرضى منذ عامين، تذكر عندما عدتني مراراً، أوقات الظهيرة بحرهما القاسى،

ووجدتها الجافة التي مرت على. وأصوات الطريق الذي لم أكن قادراً على الخروج إليه. كدت أدمع عندما استعدت وهنى الذي كان، جئت إلى أرقى بلحظة ليلية نائية بعد عودتى من سهرة قضيناها معا توقفى فجأة أثناء سيرى، إدراكى أن حديثنا عما كان يفوق حوارنا عما هو أت، أيام نائيات ظننا يوماً أنها الغاية. أنها لن تبديد أبداً، انقضت، ولت، إذا بالزمن يسرع فلا نجلس إلا لنستعيدها. أورثنى هذا شجى، ذلك مالم تعرفه تلك البنية عنى؛ مالم تعقله أن وجودها تجاهى كان يستثير عزمنا ظننت أنه ذوى، وقدرة على البوح طال خمودها، لكن أنى لها ذلك ولم أخاطبها إلا فى جمع، أنى لها الاطلاع على موروثى وهى لم تتجاوز العشرين إلا بسنوات أربع. وتلك نقطة يتطلع فيها المرء إلى الغد، لا يخشى الطوارق، الدواهم، يسألنى بعض من لا يعرفنى، لماذا تبدو مسناً وأنت لم تتجاوز الأربعين إلا بسنوات قلائل؟ معهم الحق يا أخى إذ إنهم لا يعلمون، لا يعلمون أننا مررنا بمراحل تبدو متقاربة لكنها متباعدة. ولم يكن الحمل يخلصنا، ولكننا لم نلقه، ولم نتخلص منه، إذ إنه متصل بقومنا، وجمعنا. بعض مما عرفناه كان ممكناً أن يهدد جمعاً، لو أفضت فى هذا، لن أكف ولكننى أضرب لك مثلاً بعصر انقلاب الأحوال. وانعكاس القيم. الذى عشناه وعصف بنا فى سبعينيات زماننا، وأننى لمحدثك يوماً عن رسالة ضمنيتها بعضاً مما جرى لمن عرفتهم وشيعتها إلى صاحب لى أثر الغربية. وسميتها رسالة البصائر فى المصائر، لذا أقصر

الآن، ولا أفصل!. إنما طال تلميحى لأنبهك إلى ما عنته البنية
بانبثاقها المباغت، بحضورها الواج، بحيويتها، فكأنى
قصدها لأنهل منها تريقا يجدد ما بلى. وينهى عبوسى الذى
طال. لو أنها صدتنى لا نثنت، لكنها.. سخرت. أليس ما أتته
عين السخرية؟ بلى، شيئا فشيئا اتقد دماغى. لمت ذاتى، كيف
أقذف بنفسى تجاه من أجهله. هل بهرنى جمالها؟ كيف
سأطيق الرحلة غدا وهى على مقربة، فى نفس الطائرة، لن
أطلع إليها. لن أتجه إلى أى موضع تقف فيه، وإذا أقبلت
نحوى وخاطبتنى، فسأبدى لها الجفوة، سأسمعها ما يقوله
محب بعد انقلاب العشق إلى بغض. مع أن المحبة لم تمتد
بيننا، وما جرى هبوب من عندى تجاهها.

أغمض عيني، العتمة تهن فى الخارج، والنوم قصى. أما
قلبي فيعدو جامدا فى أثرى، أحمله ما لا يطيق، أخشى ما
أخشاه أن يتعثر، أن يكبو، أمامى سفر طويل، إنى بحاجة إلى
الراحة، فلماذا لا أجمع، لماذا لا أغفو، هل نامت هى مباشرة
بعد انصرافنا، أم أنها تتقلب بين ذراعى رجل من قومها،
استدعته بعد ذهابنا، ميراثه ميراثها، وما احتاج مراحل
متوالية لأشعره، لأوصله لها، يدركه هو فى لحظة، قمت من
رقادى، متطلعا إلى رمادية الضوء، إلى طلائع النهار الأسوى
البكر، ما أنأى المسافة بين مضجعى وبينى!.. وما أقربها!..
تطلعت إلى الصوان المقابل، إلى دورق المياه، إلى الراديو
الصغير. وحقيبتى التى لم أخرج محتوياتها، أما اللوحة

الجنسية فعلى مقربة منى. كان من المفروض أن تكون بين حاجاتها الآن، أطرقت، تساءلت، لماذا أقسو عليها؟ ما ذنبها؟ إنها لا تعرفنى، وما أنا إلا فرد فى جمع، ذات جمال مثلها لابد أن القصاد طرخوا السبل إليها، وأسمعوها من الكلمات أرقها. ألم تقل لى عندما أظهرت البادرة الأولى..

«.. وكيف أصدقك ؟؟»

غير أننى اتكلت على احساسها الأنثوى، فما عندى تجاهها إلا صدق النوايا. بدا لى أن مكنونى سيصل إليها، لكننى كنت أعول على بى. أو أطلب العون منى، فما أضيق الساحة وأصعب الأمر، هكذا اكتمل نهار جديد من عمر الدنيا وأنا موزع. مفرق، متحامل عليها، مبرر لها، قاس ومشفق معا، أتطلع إلى الفراخ. إلى النهار الجديد، لو أغفو نصف ساعة، غير أن جسمى كلما اقترب ولامس المضجع. نأت الخواطر وفرت، هكذا فارقت الفراش وقفت متطلعا عبر زجاج الشرفة. مشتعل بنصبى، محاطا بوحدة صماء، انحنى ببصرى متمهلا على الحديقة الأمامية، أقصد شجرتى التوليب، أوشك على ذرف وجدى، من هنا كان البدء، بينهما سعت، فى مجالهما اكتشفت مدارها، كنت يا أخى أصفى إلى الصمت السارى عندما وقع ما استهدف دفق قلبى، إذ رن جرس الهاتف فجأة، رنيننا حادا، متصلا، ماذا.. هى؟ أتعونى؟ إذن.. هل مرت بما مررت به؟ ألفها الأرق كما لفنى؟ أتعونى لنقابل النهار معا

كما كنت أشرع فى الزمن القديم؟ قطعت خطوتين إلى الهاتف، وعلى ملامحى مشروع عتاب، لا أدرى كيف سيكون جوابى، أمسكت على أنفاسى، غير أننى فوجئت برجل يتكلم لغة لا أعرفها، مجهولة عندى تماماً، لم أفهم، قلت بالعربية متجهما ..
لا أعرف، لا أعرف..

من هذا؟ من أية جهة؟ ماذا يريد؟ كيف فى هذه الساعة؟ خطأ أم قصد؟ محاولة للتأكد من وجودى فى الغرفة؟ لا أدرى نفضت هذا عنى، تطلعت إلى ساعتى، الثانية والرابع فى القاهرة الآن، أضفت أربع ساعات، اجتزت الحد الفاصل بين ذروة إرهاق وبين بدء تعب جديد، يحوى القديم، وليت وجهى تجاه النهار القادم، فت إمكانية القدرة على النوم بمدى سحيق، واجهت الضوء المتزايد، نضاحاً بضرى، بأساى، منطويا على ما استقر عندى من نوى، كنت متستسلما لتوالى مجيء النهار الجديد. فأنا يا أخى حسير!

مواقع الشهب

تحاشيتها !

فى الصالة المتوهجة بضوء أسىوى انتحيت ركنا قصيا،
مغمضا عينى المجهدين بين لحظة وأخرى منصتا إلى وتأثر
تعبى، داخلى ظلال من شجر توليب، وقباب، وفضاءات لا
نهائية، ومسارب بعيدة لمياه منحدره، عما قليل ساجوز الفراغ،
تلك أرض ربما لن أطاها مرة أخرى. وهذه ديار لن أجوس
خلالها، مقامى بعيد، دنا صاحبي حاورنى، تجنبت الخوض أو
التلميح، وعرف هو فالترزم، قال إن إجهادى واضح، قلت إننى
أرقت بعض الوقت، لم أبح له يا أخى بسهادى، لم أقل له إننى

ما غفوت منذ صباح أمس، وإن ما أخشاه ألا يتم قلبي رحيله
 معي، لكم أثقلت عليه، لكم حملته مالا يطيق. ساعات طوال من
 الرحيل. وما هو إقلاع وشيك، أتأهب لإقلاع مغاير، من شرق
 إلى غرب، من أرض إلى أرض، من مواقيت إلى أخرى، طاويا
 خيبة أمل، ونكوص بعد إقدام، سرى في الجمع تأهب، فوق
 أرض المطار اصطف عدد من الصغيرات، ملامهن الآسيوية
 جميلة بادية، يحملن باقات زهور حمراء، ملت مقبلا الطفلة،
 حدثت إلى عينيها الواسعتين، المقبلتين، هاتان لن أقابلهما مرة
 أخرى. لن أطالع نظراتهما، تلك لحظة لقاء عابرة، يعقبها تفرق،
 كتماس الشهب، تعرف عني يا أخى طول تأملى لهذه اللحظات
 العابرة، ولعلك محتفظ بعد برسالتى إليك عن الاغتراب واللقاء،
 لعلك تذكر وصفى لتلك المدينة الحدودية الهادئة. المدثرة
 بالأشجار والنبات، وخطوى فوق الأرض المبلطة بالحجر، عندما
 ظهرت شابة، واثقة، متزنة الخطى، قاصدة. اجتازتني ومضت
 مبتعدة مخلفة حضورها القوى في الفراغ، خلف ظهورها
 العابر عندي هياما غامضا واستفسارات شتى، عرفت مثل هذه
 اللحظات كثيرا فلن أثقل عليك. إلا أنني أقول عن حنوى بالنظر
 تجاه تلك البنية الصغيرة التى ستسعى بأرض وأسعى بأخرى،
 وربما لن نلتقى أبدا، كما لم نلتق قط، صافحت القوم، وعند
 اتجاهى صوب الطائرة الضخمة، الجاثمة، لمحتها، تمضى بين
 القوم، فارهة، علامة دالة مدلة، تتناول باقات الزهور من
 زميلاتهما، تجمعها. تضحك تبدو لاهية. فهل لى أن ألوم؟ هل لى

أن أعتب؟ هاهى تمد الخطى غير عابئة بالالتفات حتى، تتخطى البعض، ترتقى السلم وثبا، أحرص على تباطؤ. ما أوده أن ألوذ بمقعد منفرد، أن أجاور من أجهله، أغفو ولو ساعة، اخفف من كددي، المقاعد الأمامية مشغولة، ألمحها عند نهاية المقصورة إلى اليمين، تقف ولم تقعد بعد، حدث إلى الممر الأيسر، تقدمت غاضبا بصري، متحاشيا النظر إلى الفراغ الذى تشغله. وددت سرعة التوارى، التدثر بوحدي، غير أن ما جرى يا أخى عجب. فوجئت بيدها تمتد لتمسك معصمى، تقدمت صوبى أثناء إشاحتى إلى الجهة الأخرى، لم تنادنى، لم تلفظ اسمى، إنما قصدتنى، أشارت، ولم يكن بوسعى إلا التلبية متوثب الروح، خافق القلب، صامت، لا نطق ولا قول، إنما كلى بهت وغيبة عن حضورى، رأيت معطفها مطويا. مسندا إلى المقعد الشاغر حتى لا يقربه غيرى، أما ما رقرق وقتى وذرى تعبى فمرأى الزهور، الباقات التى جمعتها من زميلاتنا، ثبتتها فى ظهرى المقعدين الأماميين، وزعتها بالتساوى، فى تنسيق بديع، مرة أخرى بسطت يدها مشيرة إلى الزهور كأنها تقول بالصمت: هذا من أجلك.

توقفت، جازت إلى المقعد المجاور للنافذة، وعندما استوت، ولت وجهها متطلعة إلى ما لا أدريه، أسلمتنى يدها، فتخللت أصابعها حتى امتزج إحساسى بإحساسها، فلم أعد أدري أصابعى من أصابعها حتى لو شئت تحريك أصبع لعجزت إرادتى عن تحديدها، كنت أستوى على مهل فى حضور جديد.

اعلم يا أخى أن الأمر لم يكن بيدى منه قدر ولو يسير، لبیت
والرضا متمكن منى، فكان غضبى وحرزى لم يكونا إلا عتابا
دقيقا لم ألفظه، أو تمهيدا لما صرت إليه. ما إن جاورتها
صامتا، ساكنا، متشاغلا بالنظر إلى الزهور، متأملا فى مغزى
صفها لها ودلالة الأمر حتى ولى ما عانيتته، فكان أرقا لم
يقضنى وسهادا لم يطرقنى، بل إننى لمت نفسى لسوء ظنى،
وتحاملى عليها. لا أظنك تعد هذا ضعفا منى، حتى وإن بدا لك
هذا فلا ضير على ولا خجل أبدي، تلك لحظات انتفت فيها
الحسابات، حرام فيها القول بما يجب الإقدام عليه، وما ينبغى
تجنبه، فى حضرتها لا أتقنع ولا استعير. ولا استعين بما ليس
عندى. هذا حالى أبسطه كما هو. نقيا صافيا كقطرات الغيث
قبل ملامسة اليابسة، ربما تود الإحاطة بما جرى وكان، إنى
مذكرك، منبهك إلى أن مثل هذا صعب تدوينه مفصلا بعد
انقضائه، فما يقال يفنى عندما يتلقاه الآخر، وعند استعادته
أما النظرة فتكتسى المعنى وتنفذ مندوجة بذات المتلقى، العجيب
أن تعبى تدرى، وإرهاق قلبى ولى، منها سرى دفق إلى
أوصالى، وشيئا فشيئا لم يعد إلانا، فكان القوم لا يحيطون بنا،
علقت بابتسامتها الثرية، وخضعت لألق عينها، أما جبينها
فبدا رحبا، لا نهائيا، وقامت بينى وبين غمازتها صلة، انثنت
إلى توالى ابتساماتها، تلك المضمومة منها، أو التى تحاول
للمتها قبل انفلاته ربما لا تدرك عقباه، أو الهادئة المصاحبة
لإيماءاتها، أما هذه التى تضىء ملامحها كلها بضئ خفى
المصدر، فلها شأن يغينى.

الامر شاسع يا أخى، يا أعز صاحب، وربما أفردت يوما رسالة أنبتك فيها بالابتسامات وتعاقبها، والالتفاتات وتنوعها، وانفعالاتها الشتى، والاندفاعات المفاجئة، والبوح، والزمن وما حفل، والوقت الذى جرفنى وطوانى وأحال ما كان منى إلى دوارس، غواير، فأدرك يا أخى ما مربى، وفق الله أيامك. ماذا جرى منها ومنى خلال هذه الساعات الخمس، ونحن ما بين الثرى والثريا؟ أقول بعضا من كل، فى البدء تناولت سلة فيها لفائف، أرتنى ما اشترته فهذا عطر من أعشاب، أتت به من بخارى، وهذا كتاب عن مساجد سمرقند، عجبت، كيف فاتنى شراؤه؟ ضحكت، أخرجت رغيفا أوزيكيا، قالت إن اسمه «نون» فاستعدت مذاق الخبز الذى ظننت أننى غير ملاقيه أبدا، ضحكت مرة أخرى، قدمت زيتونا وعنبا. قالت إنها لا تتناول فى العادة عشاءها، لكنها أحيانا تجوع فى الليل. فتؤثر الاحتفاظ بطعام يسير، كدت أمهف فرحا، إنها تطلعنى على شيء من خصائصها، قلت إننى مثلها لا أتناول إلا عشاء خفيفا، كنت أسعى متلمسا ولو شبها بسيطا بينى وبينها، هذا حال لابد أنك مدركه يا أخى، لكم سررت عندما عرفت أنها مولودة فى نفس شهرى، وما بين يومى ويومها ستة عشر يوما فقط، غير أننى تداركت ضاحكا، فرق الأيام قليل، ولكن السنوات شاسعة، عشرين كاملة، صبحها قريب، وأصبلى سار، وداخلى إلى غروب، رددت تاريخى، قالت إنها لن تنسى أبدا، ولما بدأ غيم من وجومى، شردت لحظة، تسالطت عما

أفكر؟ قلت إننى أفكر فى المكان الذى سيكون فيه كل منا بعد سنوات عشر، قالت، لماذا تشغل نفسك بما لا تثق من وصولنا إليه؟ ثم قالت، هذه الطائرة معلقة بين السماء والأرض، وخطأ أبسط مما تتصور يمكن أن يضع حداً للنهاية، فلماذا لا نقترن باللحظة؟.

لم أقل لها يا أختى إن اللحظة التى نعيشها سرعان ما تنتقضى، لن نمسك بها أبداً، دائماً تولى، تفلت، فنحن فى فوت دائم، أما جلستنا هذه وقربنا ذاك، فسيستحيل هذا كله إلى صور نائية، استرجاعها بالمخيلة، لم أقل لها إننى أرى لحظة افتراقى واللقاء متصل، وهذا جل اغترابى، وصميم قلقتى، لم أقل لها ذلك، لكنها أدركت. فكت رموز سماتى، نفذت إلى لب صممتى.. قالت مرة أخرى.

«تبدو مهموماً»

ثم قالت:

«تبدو متقدماً عن سنوات عمرك.»

ثم تساءلت:

«لماذا لا تعرف أنيتك؟»

قالت إنها منذ ثلاث سنوات، أجرت عملية جراحية، رفضت المخدر. أصرت على إجرائها وهى مكتملة الوعي، الألم له حد لا حد بعده، الألم يقتل الألم. لكنها أدركت فيما بعد أنها لم

تطلق الغياب لحظة واحدة عن وقائع الحياة، قالت إنها فى رحلة كهذه تضن على نفسها بالنوم حتى تسمع وترى.. قلت لها إننى عندما كنت فى المعتقل منذ عشرين عاما، تأملت رفاقى الستة والعشرين. العنبر ضيق. معتم، والموقع قصى عن المدينة، بعضهم يروح ويجىء. عندما جاهرت بخاطرتى..

«ترى أين سنكون بعد عشر سنين؟»

تطلعوا تجاهى صامتين، مفاجئتين، ثم حاول كل منهم النطق والتخمين، كانت السنوات العشر تبدو نائية، ممتدة، مسافة شاسعة، خطأ الزمن، وانقضت عشر فى أثرها مثلها، وتفرق كل منا إلى جهة. وبعضهم رحل عن دنيانا، ومنهم من نسيته تماما مع أننا قضينا أشهرا ستة متوالية معا، مهددين معا، ناكل من ماعون واحد، ولو أنى شئت تفصيل ما جرى لكل منهم لفاض الأمر، لكلت، تقلبت المصائر بهم، وتفرقت السبل، كانت تصغى إلى باهتمام يا أخى لم يقابلنى أحد بمثله. ثم تساءلت عن السبب الذى أدى بى إلى دخولى المعتقل، ثم سجنى، أفضيت إليها وصرحت بما لم أقله تحت وطأة الإيلام البدنى، والنفسى، غير أن ما أقلت منى واستوقفها قولى:

«كنا نحلم بتغيير العالم!»

تساءلت بجدية:

«ولماذا .. ألا يمكن تغييره حقا؟»

تطلعت إليها صامتا، كنت عند نقاط معينة أحيده. تذكرت صاحبي، أستاذ الهندسة القديم، الذى يجلس على مقربة، تفاوله الأبدى، وابتسامته فى أصعب الظروف، وددت القول إن الأحلام فى البداية كانت شاملة، ومع السنوات تواضعت حتى أصبح التعليق بالبيدهات حلما. الأمور المفروغ منها. المتفق عليها بين الكافة، التى ظننا فى بواكيرنا أنها لن تكون موضوعا للمناقشة، رغبت فى الإفضاء إليها بهذا كله، غير واننى للممت، طويت وأحجمت، فالأمر يحتاج إلى تفسير، وإننى آتيا به، غير أننى مرجئ ذلك، فما أحوجنى أن أعرف عنها.

قللت إنها الابنة الوحيدة، تدرس المعمار منذ سنوات، لكنها تعمل أيضا بتدريس اللغة الإنجليزية، تعيش مع زوجها فى بيت من حجرتين، ترتب أموره، تدبر شئونه، تعد الطعام، أحيانا يشاركها أيام الأجازات، إنه رقيق، لكنه شاب، شاب جدا، صغير.

لا تفوتنى نبذة صوتها، مرة أخرى ألتمز الصمت عند سماع ذلك فالأمر حرج، تلفتت ، والتفاتاتها يا أخى حادة، مُباغته، غير أنها لطيفة الوقع، تلقى عندى دعة، كما يطيب لبصرى عندئذ المكث عند أفق وجهها الجانبى. له جمال بذاته، يختلف عن حضور ملامحها إذا تطلعت إليها بالمواجهة، باغتتنى، اتجهت صوب يدي، بسطتها، حددت إلى خطوط راحتى، لم تقل شيئا، عندما بسطت كفها للمقارنة، تدفقت

تجاهها، أحطت بيدها حتى سرى إلى نبض أوردتها الخافت
 وحرارة جسدها، رفعتها متأنيا، قبلتها، بل قل إننى مسستها
 بشفتى، غير أننى أقمت، بقيت منحنيا، بدت شاخصة، متطلعة.
 عندما مست شعر أسى، طارت دقات قلبى بعضها، كبحت
 زمامى، هذا أقصى ما يمكن صدوره عنى، وجمع على مقربة،
 بعضهم يسمع ويرى، بقى عناق أصابعنا، وإرتدت ملامحها
 إلى طفولة، إلى مراحلها الأولى، فأطلعتنى. على ما لم أره. لا
 أدري متى قالت إنها تسبغ مرتين أسبوعيا حتى فى الشتاء،
 تمضى للسير فى الغابات الممتدة، المحيطة بالمدينة، عند لحظة
 معينة، صعب تحديدها اتصلت الحميمة، وتوحدت الأسباب،
 فصار كلانا يلتقى عن الآخر فى اللحظة عينها، وفجأة، انتهت
 إلى تسرب اللحظات منى، فبدأ وعى بالمغادرة، ووجدى الذى
 سيعقب الانقضاء. طفت من داخل الحان عتيقة، وبقايا
 أشعار، طلبت منها أن تصفى. فهى لن تخاطب حقا إلا بالغناء،
 هل تعرف آلة القانون؟ إستفسرت فشرحت موضحا، رفعت
 إصبعها.. «السانطور»

قلت إنه يشبهه، غير أن استخراج أنغامه بالأصابع، وليس
 بالطرق. إننى أتقن العزف. لو بصحبتى القانون لحيأت مجلسا
 لى فى هذا الحيز الضيق، ولا أكلمها إلا عزفا، استعدت
 بخيالى مواقع الأوتار. صفرت النغم بقمى، هكذا صرت
 العازف والمصدر معا، حتى أتممت على مسامعها بشرف
 سماعى راسا أتقنته منذ زمن، صار سلوتى إذا كوانى
 وجدى، أو طحا بى شوق فى الضلوع عاصف، أصغت دانية
 منى، هزت رأسها مرتين، ومن أعطافها سرى إلى هبوب، بدأت

أتلّس دربي إلى رائحتها الخاصة، تضاعف وجدى، فنوعت
واسترسلت، فلما فرغت، قالت بإشفاق..

«هذا جميل، شجى، لكنه حزين..»

اعتدلت، واجهتها بكلى، فى كل لحظة يقلع من عندى وفد
إليها ليبلغ وينبئ، قلت إن من كان مثلها لا يخاطب إلا شعراً،
بل لابد من إيجاد لغة تخصها، لا تخاطب بها إلا هى، ليس
مثلها مثل. ملت فلاقت جهات وجهها جهاتى، استدعيت من
دقائق ذاكرتى شعرا، أنشدتها بعضاً مما احتوى حالى، ما
تنبأ به شعراء عاشوا قبلى بقرون طويلة، ما عرفوا أنى ملاقيه،
اجتهدت لنقل المعانى إلى الإنجليزية، وعندما قالت إنها تذكر
بيتاً للمتنبى هففت فرحاً، وأفانى إشعاع من عينيها بمدد
فبدد تعبى، وسقتنى من منابعتها فتقلبت بين حركة وسكون،
أبصرت دقائق غابت عنى، أمسكت بما يفصل الظل عن أصله،
وأدركت ما بين الصلب والترائب، فاطلعت على التكوين فى
أوله، كنت غير غائب عن هيئتها الكلية، والجزئية، عن هيئة
جلستها، إطلالتها، هيئة تحولها من جانب إلى آخر، هيئة
إصغلتها، إبدائها العجب أو الدهشة، أو بث إشارة خفية لا
أخطئها أبداً. كنت يا أخى كمن ينفض عنه كمونا طال، أو
يقصى البلى فيصير إلى عالم يتوقعه، ومالم يخطر على قلبه،
أو عقله، ولا جاس بخباياه، ومن أغوارى نما النداء منى
والحض، أن أقوم، أن أجتو وأقترب. لكن مازال الأوان بعيداً.
فإنهم يا أخى ما حجبته وما لم أقيده لصعوبة تدوينه أو تحويله
إلى لفظ، لعلك - يوما - شافعى.

اندلاع اللحظة

أخى..

من القائل:

بلىنا، وما تبلى النجوم الطوالع

وتبقى الجبال، بعدنا والمصانع

من؟؟

هلا أجبتنى؟.. هلا ساعدتني؟ دلنى وردد القول، أما أنا
فإذا سنحت الفرصة فسأنقشه، سأخطه على واجهة معمار
تابع تصميمه من صميمي، لما استوى حضورها عندي.
وتأهبت روحى لتقلع من كدوراتها أيقنت أو قل بلورت ما ظل

سنين جائثما. أقصد تعلقى بالبناء، ودراسته، وترميم القديم منه، وهذا ما أتقنته، وذاع عني، إنه الرغبة الدفينة يا أخى فى عدم الزوال، فى البقاء. فى تثبيت اللحظة التى يستحيل إيقاف مروقها. انفلاتها، فكأنى أعوقها بالحجز. وإن كنت عاجزا عن تأخير حينى، أو استعادة ما أفلت منى. فى غمار نشوتى يا أخى، يا أعز الأقربين، على شفا استيعاب عبيرها، والطائرة تميل صوب الأرض، ويدانا متشابكتان، وكتفانا متماستان، اندلع أمامى الخاطر النكد، فتجاورنا يوشك على انفصام والمتاح لى ساعات، ثمان وأربعون ثم يقذف بى عبر الفراغات العلا، أصير إلى جهة. وتبقى هى فى جهة، فماذا أنا فاعل؟ ماذا سأجنى؟ هكذا أرى لحظة زوالى، ونأبى، أرى عين افتراقى معى فنح وردد مع القائل:

إذا هى مرت لم تعد، ووراءها

نظائر، والأوقات ماض وقادم

فما أب منها بعد ما غاب غائب

ولا يعدم الحين المحدد عادم

قل معه يا أخى:

أمسى الذى مر على قريه

يعجز أهل الأرض عن رده

هكذا بذلت جهدى لأدارى أساى، ناديت نفسى، أن أتجلد،
هذا ليس إلا الفراق الأصغر، وبعد ساعات يبدأ الفراق الأكبر.
قامت بعد توقف الطائرة. أخرجت من حقيبتها غطاء رأس من
الفرو ثقيلًا، نافر الشعيرات، له فرادة. فلم أر مثله. كنت أتأهب
لتلقى أول بواده للوجد بعد الصبابة، لا أقدر على معانقة
اللحظة كما أشارت. فكل لحظة إلى بلى صائرة، ولما ارتديت
معطفى، وتأهبت لملاقاة البرد الصقيعى ودعتنى بابتسامة، لابد
أن تمضى إلى الهندى وصحبه، غابت عنهم طويلا هى المكلفة
بمرافقتهم، أومأت صاغرا، أشارت إلى غد، حددت السادسة،
أى ساقضى ليلة ونهارا فى مدينة تسعى فيها، تظلنى الغيوم
ونفس السماء، وأتدثر كما تتدثر هى من شتاتها الكوفى، لكنها
فى مكان، وأنا فى آخر أنوء تحت تعبى الذى بدأ بمجرد
ابتعادها عنى، غصت فى مقعدى، محملا إلى الأشجار
المتتابعة، المكلة بالجليد، أخضر، وأبيض ناصع، نقى لا يشوبه
كدر، إلى كنيسة زاهية ألوانها. الأحمر صريح. الأصفر قوى.
الأخضر خصب. أما القباب فسرمدية، إلى ضباب كثيف
يخفى نهايات المباني الضخمة وقممها، كأنها تنهض من دعائم
الأرض الصلبة إلى عنصر الغيب، بدأ ضوء النهار واهنا.
والقوم يسرون فى أرديتهم الثقيلة، يمشون فوق الأرصفة إلى
غايات شتى، أما غايتى فموشكة على التبدد، ساعات وأغادر،
ما تبقى من زمن غير مساعد، كيف يمكن لصلة أن تنمو.
ولوصل أن يجزى، إذن.. ما يعيننى أن أبلغ ما عندى، ما

أراحنى أننى كشفت لها قبسا. لو جئت مرة أخرى وهذا
صعب، وعمر، فهل سألقاها هى، هى، وهل تبقى اللحظات
المتوالية إنسانا على حاله؟ عند باب الفندق، فوجئت بها تنزل
من العربة، يميل رأسها قليلا، تضم شفيتها، أما الابتسامة
فبوجهها كله..

إلى غد.

قالت مؤكدة: السادسة، وددت لو لذت بسموقها، لو احتميت
بوارفها، لكن.. لم يكن من الوداع المؤقت بد، ولا من الانفراد
مفر، فألى من أخلو بعدها؟ رغبت التوحد بذاتى، واستدعاء ما
انقرض من وقت، هكذا هرعت إلى حجرتى، محتما بهدونها،
متوضئا بصمتها، بفراغها، مستلقيا مستسلما للرؤى، بدءا من
القباب السمرقندية، والمداخل الشاهقة، والحضور البخارى،
وحديقة القصر الصيفى، إلى مشيها، إلى ظهورها بين شجرتى
التوليب، إلى قلبها من طور إلى طور فى ليلة سهرنا الحميمية،
إلى أثر لا تلحظه عين يتركه قوامها الباسق فى الفراغ الذى
تجوز عبره، كنت أصفى إلى تدفق الحياة فى أوصال المدينة
المدثرة بالتلوج، والشجر الذى لم يبيل اخضراره فى الصقيع،
وعندما أغمضت عيني، كانت تغمرنى ولم يكن لى عاصم بعد
اليوم.

اعلم يا أخى أن ما ينتهى أحيانا يبدأ وإن كان غير موجود،
وثمة ما نراه بالنظر، ونلمسه وندركه بالحواس إلا أننا نفتقده،

وآخر إذا ولى وغاب عنا صار متمكنا منا، وصرنا منه فى أمر
سديد.

هذا عين حالى الآن، وجوهره ذلك العصر يوم أوتيت من
آسيا الوسطى، أغلقت بابى، أقمت أرصادى، لم أرفع سماعة
الهاتف رغم توالى الرنين، لم أعبأ، هى على مسافة يمكننى أن
أقطعها مشيا. بعد ليلتين أصير إلى قارة. أعود إلى نظام،
وتبقى هى فى نظام آخر، هذا حالى معها. هذا ما قدر
على.

فى هذا العصر الذى أغلقت فيه بابى. لاح خسرى، أدركت
أننى أدرب نفسى على فراق يقينى، وأننى أستدعى إلى
اللحظات الآتية مكابدة مقبلة، فعبثا قولها. «عش اللحظة»،
ودعك من أت قد لا تبلغه، إنما أنا ما كنته، ما جبلت عليه،
وعندما ثقل الليل تساءلت، أين هى الآن؟ فى أى مكان تخطو أو
تجلس أو تتأمل فى عين هذه اللحظة؟ تماما كما سيكون حالى
لأمد طويلة مقبلة، ورغم إعيائى فى فورة حجب عنى الإغفاءة
والهجرة، أى من أصابنى؟ أنا الحزين، المبتعد، كنت أدرب
النفس على أن ما مررت به اكتمل وتم، مهما جاءت به الساعات
الآتية. القادم لا أتوقعه وإن تمنيته، الحق يا أختى، أن شكا
روادنى فى وعدما بالمجىء لترانى، وأننا سنلتقى مرة أخرى،
على امتداد النهار التالى خرجت، انتقلت، عبرت الشوارع
العريضة، خطوط فوق الثلوج المزاحة فوق الأرصفة، لبیت دعوة

من صاحب لنا، كنت فى كل لحظة، عند كل إيماءة أو التفاتة موقناً أنها ترقبني من مكان خفى، أنها توشك على مناداتي، وكنت مهياً لأن ألبى، حتى إذا ولجت باب النزل الفسيح طالعتني هي، هي بوجودها، بحضورها، بسناها، كانت بصحبة زميلتين ومن تطلعها، من نظراتها صوبى أيقنت أنها لم تقف إلا لانتظاري، ولم تأت إلا لتراني، فشب عندي توق متجدد. ما إن لمحتني حتى أنهت حوارها، أقبلت نحوي، كانت شاهقة كنصب حتى للأنوثة، ترتدى قميصاً من حرير، يشى بمشد صدرها. وحزاماً جلدياً عريضاً أبرز دقة خصرها الذي أوشك أن يكون رمزاً، عجبت، إذ كيف يمكن أن يحتوى؟ كأن فراغاً يفصل نصفها العلوى وقدها السفلى، وعندما تقدمتني كانت تسرى ولا تمشى، أما خطاها فصهرت ما عداها، الأبواب المطلة على الممر، والجدران القائمة. والبسط المفروشة، والمصابيح الواهنة، وأرقام الغرف، لم أعد أبصر إلا هي، ولا أرى سواها، وعندما دخلت الغرفة، وعبرت إلى المقعد الوثير، توقفت رانيا، مدمماً فى قرارى، كطائرة تدرج ثم تتوقف لحظات قبل الإقلاع. كانت أشواق طال همودها تستنفر، تبرزغ، وأحاج لم تحل، وأسرار تراكمت عبر المسيرة، كنت موشكا على الإفضاء بها، كانت تضوى، أما وجودها الحسى فيلغى ما عداها، انتشت داخلي طاقات عتيقة، وتجددت منابع جفت، تهيأت لنثر درى ومرجاني اتقليب صحفى الأولى، وتجديد أحوالى البالية، لما رأيتهـا متطلعة إلى، مستفسرة، متأهة، منتظرة، لمحت البشارة آتية من

ضيا عينيها، لم أثن، لم أضيع لحظة، إنما على الفور بدأت
الدعوة.

جنوت!

شيعت لثمي، وتقبيلي إلى كافة ما طلته من عالمها الحسي،
بدأت بيديها، وطفت، ثم عدت، أنفاسي زفير بلا شهيق، حتى
إذا لمست جدائلها وتنسمت عبيرها انقلبت شهيقا ولا زفير،
أثناء قدومنا من آسيا الوسطى تعرفت على حدود أطياها،
رائحتها الخاصة، غير أني لم أتوغل، لكني عندما استنشقت
نسائمها، هبوبها، تفتحت في صدري طرائق ودروب ومسارب
ما ظننت يوما أنها عندي. عانقت رائحتها، تعلقت بها، اقتفيتها
في شعرها، في جبينها، ارتيمت تحت فتحتي أنفها حتى أتلقي
من صدرها خبرا، في وجنتيها اللتين شعتا ضوءا خفيفا حلوا
ليس من مكونات هذا العالم. استنشقتها من طيات ثيابها، من
أطراف ردائها، كنت أبغى تثبيتها داخلي، ادخار جواهرها،
الإمساك بلبها حتى لتخرج من مسامي وأنفاسي، فإذا نأت بي
الديار، وتقادم العهد بهذه الانتفاضة، أمكنني استعادة بعض
من ديمومتها، تعلقت بيديها، تهجدت نظراتي صوبها، انحنيت
ملامسا أصابعها بجبهتي، كنت أخلق طقوسي، لا سابقة لها،
ولن يكون، رددت اسمي، اسمي لا غير، انتشيت لما أصغيت
إلى حروفه المكونة مصاغة بنطقها الغريب، تطلب مني أن أكف،
أن أتوقف، لفني صوتها الساري إلى، تراجعت برأسي قليلا،
رأيتها في خلق جديد، في كل مرة يا أخي تبدى لي يا أخي

ملاح أدركها لأول مرة، عدت أهوى إليها. تجاهها ارتطمت،
حطمت، طوقت عبيرها مرة أخرى. رائحة يا أخى ليس لها
مثل، أعلم يا أخى أنها أم من روائح شتى، كلها طيبة،
مسكرة، فمنها طيب منبعث من ثنانيا شعرها، وبقايا عطرها،
وإشعاعات وجودها، وثناياها النائية، هذا يدق عن الإحاطة،
يستعصى على الوصف، لو أنى قدرت على الاستعارة، ولو
قبسا، لاستمر بعثى ونشورى، لو أعاننى الدهر على الوقوف
عندها مرة أخرى لبلغت ما انطوت عليه الفكرة، لجاوزت مسافة
القدرة، لتجدد عطائى بغير حساب.

فاليريا ..

ناديتها همسا، فجاءتني بالنظر الحلو، رجوتها أن تقف،
لبت يا أخى لبت، سألتها أن تخطو، فلما جاءتني، حاولت
معانقة الفضاء الذى اجتازته، الذى عبرته، فلما أعيانى الأمر.
قبلت مواقع الخطى، عندئذ انحنت، قابلتني بعينيها، لاقنتني
بنظراتها، أشرفت، حنت على حنوا، أطلت، وكنت أعى أن قدرى
يكمن فى إحدى هذه الطلات. درجت نحوها، ساعيا إلى روح
وريحان، حاولت النفاذ عبر عينيها، فأقلعت عبر رياض،
ومفازات، ولست قعم أشجار نادرة، وجزت وديانا وبيدا،
وطفت بمدن لم أطأها، وفاتتني أرض لن أبلغها إلا بشق
الأنفس، رافلا فى نعيم القوم. متدنرا بحزن البلاد كلها
وصحاريها، غير أن وقاضى ارتد خاويا. لم يحط بشىء، لكن
تفجيرى دام، لم يبلغنى كدد، حتى تعجبت فيما بعد، أكان هذا

كله منى؟ حمت راجيا حول وجنتيها، لثمتها بشفتي، عاودت النظر، فلما أيقنت من وصول طائرهما، وفضضت بريدتها، بركت على شفتيها. وأنزلت متاعى وحملنى. دفعت لسانى إلى دفة فمها الوردى، فكان شقا منى ارتد جنينا، كأن الوجود عاد سيرته الأولى. وعندما تطلعت إلى عينيها، أيقنت توفيقى فى إبلاغ الرسالة. وأن المجاوبة آتية والتلبية على وشك، لم تكف عن ندائى باسمى، مطالبته أن أهدأ، لاح فى صوتها إشفاق وحنو. رأيت عينيها تسكبان حقيقا نحوى، ورحيقهما يا أخى لو تدرى عجيب.

أعرف يا أخى ما يجول بخاطرك لحظة اطلاعك، عند إدراكك سطورى هذه، ولكن صبرا يا أقرب صاحب، وإن كنت فى بعد، صبرا، فإننى أبوح بما أخفى وما أبطن، وإنى لمفسر لك. ولكن قبل ذلك يجب أن تصغى إلى ما أرغب تفصيله حول نظراتها تلك..

نظـر

افهمنى ولا تتعجل يا أخى، نظرها إلى المصحوب بترديد
اسمى، إنما يعنى أموراً شتى، كانت كلها على مقربة، وكنت
دانياً، جاثياً، أرقها، وترقبني، نظرها يتردد بينى وبينها، منها
إلى. نظر أصفى أطيافا على ملامحها، على رونقها، أكد لى
قبولى عندها، وللقبول يا أخى إذا تم شأن عظيم، لكنه قبول
مشوب بحيرة مشروعة. فلم يمض على تكوئنا بمقادير دنيانا
إلا قدر يسير، ربما حيرة وليس تردداً، فى نظراتها أيضاً حث
لى وحض، أن أقدم، أن أشرع حتى يصل الأمر إلى مداه، إلى
محطه الأخير، أن يتوالج كونانا. لم تردنى، إنما أباحت لى

كوكبها الدرى، حتى إننى جست بيدى خلال الأكفم والروابي،
فلا ينقص الأمر إلا دفعة يسيرة متوقفة على. ولم أقدم، لم
أفعل، مع أنى الطالب وهى المطلوب! ستقول، وفيم الإحجام؟
فيم التقاعس. هنا أقول لك، أفهمنى، وأدرك ما عندى، لم أسع
إلى المنهى، قد يبدو غريبا هذا، ستسألنى، ألم ترغبها؟ أقول لك
إن ماشب عندى حريق، ومن أمسكت النار بثيابه، كيف يهدأ؟
لكنى بقدر ما رغبت، بقدر ما أحجمت، فانصهار كينونتنا لن
يقدر له الدوام، ولم أكن أسعى إلى اتحاد عابر، فى ظرفى
ذاك. لو نلتها ونالتنى، ربما انتهى حومى، وربما وضع الحد
لاستمرار اقترابها منى. لم أقصد الوصول إلى المحط الأخير.
إلى لحظة همود حتى وإن جاءت بعد ارتواء، لم تكن بالنسبة لى
نقطة عبور، ولا جسرا مؤديا، وعندما تعانقنا مال كل منا على
الأخر يعتصم به من لحظات آتية ستجرف ما نحن فيه، لا يمكن
ردها، وكنت أحتفى منها لحظة مرورها بالعناق، بالإحاطة بها،
مدركا أن هذا لن يستمر لأن الظرف معاكس، وهذا رغما عنى،
وعنها، أما إذا مددت الخيط إلى منتهاه. فلن يتبقى شىء، سبب
ثان يا أختى كنت حريصا حتى لا يتملكها الظن أن هذا ما
سحيت إليه لا غير، ولكن ما أردت توصيله وعورة هيامى،
وشموليته، وشدة توقى، هل فهمت عنى يا أختى؟ لا تفوتنا
الإشارة إلى حدة وعيى بقصر المدة، ولم أكن قادرا على التنبؤ
بما سيصير إليه حالى لو صار الأمر إلى غايته، ربما ألقيت
بكافة المحظورات جانبا. ربما اختل دستورى، وأثرت الهيام

على وجهى إلى أبدى قريبا، أهجر ديارى، وأخترق حاجز العقل، لك أن تتصور يا أخى ما صرت إليه كنت أدور حولها، أنا الجزئى وهى النواة، وما من اتحاد، كأتى من طال بحثه عن نبع الحياة، حتى إذا بلغه، لم يدرك أنه بغيته فتجاوزه دون أن يحس منه، ويعد الفوت أدرك خسارته المبين. كأتى طائر الرخ الذى علق له السندباد قطعة اللحم فى طرف العصا مدها أمامه، موجهها إياها إلى الجهة التى يرغب، والرخ يطير لعله مدركها، لعله مطعمها. ولكن عبثا التناول.

لعلى وفقت فى إبلاغك كنه الأمر.

اعلم يا أخى أن النظر تهادى بيننا. وعند لحظة بعينها ذوت حيرتها، أيقنت باطلاعها على مكنونى، هكذا احتوت رأسى بين يديها، ملت حتى أويت إلى صدرها. أنست منه مأوى، راحت تتخلل شعرى بأصابعها، رددت.. «رمادى.. رمادى..»

أوشكت على رؤية ملامحى فى نغم صوتها، ما فى رأسى من شيب. كنت أبسط تاريخى كافة أمامها. ترفع رأسى. تحديق إلى..

«حزين.. لماذا هذا الحزن كله؟»

ثم قالت:

«لم تبق إلا ساعات وترحل..»

ثم قالت:

«سأراك غدا. سأبقى معك حتى الرحيل..»

ثم قالت.

«فى الساعة الثانية عشرة، سأكون فى مبنى الاتحاد..»

قالت ونسيمها يسرى فى ثناياى، مثيرا شوقا جامحا غير
ذى عوج..

«نلتقى هناك..»

تراجعت قليلا. رأيتها حانية، مطلة، مشرفة على، محيطة بى،
لم تلفظ إلا همسا. لا يمكننى تفصيل ما قلته، أو ما قالت لى،
كانت تميل على، تزقنى الألفاظ، تطعننى مسك الحرف كما
يهدى طائر الحمام الحب إلى فرخه الصغير، على مهل كنت
أتحول إلى عناصرى الأولى، بينما وجدى يبدأ قبل بدء البعاد.
فهل أتاك ما كان منه عندى منذ أبد أبدي؟

الوجد

.. اعلم يا أخى - صبرك الله وخفف عنك ما يسبب لك بأساً
أو ضرراً - أن الفراق حق، والبين حق، وأن التئاني حق. كل
مجتمع مصيره إلى افتراق، وإلا لما كان اجتماع أصلاً. فلم
أرها بين شجرتي التوليب إلا لأنى فارقت ديارى وارتحلت،
لكن، فرق بين إدراك ذلك بالعقل، وأن تعيشه، فرق بين وعى
به. واكتوائى، اعلم يا صاحبى أن الأصل فى الأشياء التفرقة..
هكذا بدأ وجدى واشتد، وأوعره ما جاء بعد تباعد ديار،
وانعدام يقين من أوبة أخرى، هذا موجع. الوجد يا أخى شدة
الشوق، ولا يكون الشوق إلا إلى غائب، وطول الوحشة

يضاعف الحسرات، هذا ما صرت إليه بعد حين، عندما عدت إلى ديارى أغمضت عيني في ليلتي الأولى، أشبه بالطافى، المحموم في فضاءات رحبة وما من شيء يشده، كان فرحى بإدراكها، والوصول إليها. وفهمها عني، ما زال ممتدا. غضبا، فكأنى سأصحو فألقاها بجوارى، أخرج من بيتى، فكأنى ذاهب إلى لقائها، أينما وليت وجهى أراها مشرفة على، مرة تلوح هيئتها كما شهدت في آخر لحظة، وهى تقف أمام الفندق. وفي ملامحها شجى، ترتدى معطفها الأسود، تدس يديها في جيبيه، حاسرة الشعر، غير عابئة بالصقيع، بعد استقرارى في العربية، خطر لى أن أغادرها، أن أخطو ثلاث أو أربع خطوات. أمد يدي فألمسها، أو أصافحها مرة أخرى، أستوثق من كينونتها المادية، غير أن الرحيل بدأ، فلا مفر، كنت كالظامئ المقيد المرغم يبسط نظره إلى الماء وما هو ببالغه، وقفقتها هذه تعقت في خلأى، فلکم استعدتها، وفي كل أونة أرى مالم أطلع عليه من قبل، وعندما وصلت العربية إلى المنحنى، حيث قام أول حاجز مادی حال بين بصرى وبينها، وخطر لى أنا استأنن مرافقى، أن أنثنى لحظات، غير أن ميناء الإقلاع بعيد، والوقت يمضى بى إلى اتجاه آخر، لا يؤدى إليها أبدا، أراها الآن يا أخی لحظة تدوينى هذا، فأكتشف في وقفقتها تلك حزنا أعمق، وميل قوامها إلى الأمام، وتهدل كتفيها، لمحت في صالة الفندق زوارف مطلة من عينيها فتحاشيت التطلع إليها. هل تفهم عني إذا صارحتك، بوى انقضاء هذه اللحظات

الختامية؟ كان لابد من توقيع أوراق، وتسديد رسوم، وتوديع معارف، التأكد من وجود أوراق السفر. بينما تتحرك هي بمقربة. تكف إذا توقفت، وتمشى إذا مشيت، لا تتبادل الحوار إلا عرضاً، كنت أؤدى هذا كله وكأن شخصاً غيرى أنبعث من داخل ليُنوب عني، ليبتسم لهذا. ويؤكد ضرورة تبادل الرسائل لذلك، كان وجودى قريباً على رأى منها فى هذه اللحظات الختامية كعدمه، كذا وجودها بالنسبة لى، كالنا فى مواجهة الآخر. لكن الانقطاع مقرر، وعندما يصبح التئانى مفروغا منه، لا راد له، ينتفى الوجود وتنعدم الكينونة وإن قامت، جريت هذا يا أخى عندما وقفت يوماً أمام جثمان أمى، كانت متمددة، مغمضة العينين، أوت إلى أبد، المسها، لكنها لم تعد من هذا العالم، أميل لألثمها. لكنها بعد ساعة لن يكون بوسعى أن أنادىها فتجيبنى، وجودها غير موجود. وهذا شبيه بحالى مع تلك البنية فى لحظائنا الأخيرة، علما أن فراق الحى أصعب من فراق الميت، لأن الأمل يندثر بعد حين أما الحى فيظل التعلق به قائماً، إنها تحضرنى يا أخى تتمثل فى. أرى تلك اللحظة الوداعية. هذا الصرح من الحيوية أدركه ميل، آيل بسببى، وجهها الجميل يضاعف الأسينة، خاصة والليل مكتمل، وياقة الفراء تؤطر عنقها الجميل، لم أدر أنها ستلازمنى مددا أضعاف ما قضيته معها من زمن حسى، فلم يكن ما قضيته معا إلا لحظات معدودات. ولم يكن تلاقينا إلا كتماس الشهب المارقة فى اتجاهات منضادة، غير أن كلا منها أودع الآخر

لهبا، وجمرا، هكذا يا أخى نمت عندى حالة الفرح الغريب هذه فى الأيام الأولى لعودتى، كنت أصحو مبتهجا متطلعا ببهجة إلى الآتى، غير ذى صدود كأمرى قبل لقائى بها، أعى نأىها عنى، لكن لا يفزع قلبى. ولا تهرع روحى. إنما أقدم نشيطا، راغبا فى رؤية صحبى، والمضى إلى الأمكنة التى أفضل البقاء فيها منفردا، أقلب حاجاتى التى صحبتنى فى سفرى مبتهجا، قبل مفارقتنا الغرفة رجوتها أن تمسك بحقيبة سفرى، وحقيبة يدى. وحلتى التى أرديها. والأخرى التى قالت إنها تفضلها، وكتبى. ودفتر ملاحظاتى. وغطاء رأسى، وجواز سفرى، حتى ينتسب كل شىء يخصنى إليها. وحتى اللمس مواضع مرت عليها أناملها، وأنفاسها لعلى مدرك أثرا. لعلى أرى ما لا يمكن رؤيته بالنظر، دام انطلاقى هذا أياما معدودات، صعب على إحصائها بدقة، لكننى بقيت خلالها غير منتبه إلى المسافات القصية، لا أدرى ما سيصير إليه نبى بعد حين.

إذا لاقيت صاحباً أود لو حدثته عنها، أو أدير الحديث إلى وجهة تمكّننى من إيراد تفاصيل متعلقة بها، غير أنى دائماً أقف على شفا البوح، فمما لزمته بعد هذا العمر أن أكتف وأحجب، كانت تملأ على جهاتى. أتوقعها مقبلة نحوى. تفتح باباً مكتبى، تلج فراغه دافقة الحيوية إلى روحى فأشب بعد إشعالها الجذوة، بل أتمهل أحياناً كأنها نادتنى وفى الزحام يصير وجودها قويا. حتى أوشك على تلمس جسدها الضاج قريبا. كأنها تسعى حولى. كأنها توشك أن تدنو منى، كأنها

مقبلة، مبتسمة، مادة اليد، مصافحة إياي، كأن لقائى بها مفروغ منه.

صرت أتوقعها كما بدت ظهيرة ذلك اليوم فى حديقة الاتحاد، أخبرتك يا أخى أنها أفضت إلى ببقائها يوم رحيلى، حددت مقر اتحاد الفنانين مكانا، أما الوقت فدار حوله همى، طوال الليل المتبقى بعد انصرافها، رحت أستعيد ما تبقى منها. ما أودعته فراغ سكنى المؤقت، غرفة الفندق، فى مطلع النهار الجديد طوقنى شوق، مسنى إليها أول حنين، هرعت إلى المكان الذى لزمته معظم الوقت، قبلته، إلى موضع جثونا فلثمته، كنت أتعجل مرور الزمن واستبطته، فما خلا منها أرغب انقضاءه. وما اكتمل بها وددت ديمومته، ولكن يا أخى هل يدوم شىء أبدا؟

خرجت إلى فضاءات المدينة الفسيحة، المجلة بالجليد، طفت متاجر البضائع الأجنبية با حثا عن عطر تفضله. وعندما لمحت علامته تناولته، ضممته. قام بينى وبين القارورة الصغيرة أمر خاص. مررت الموعد المحدد بمدخل المبنى. طفت الشوارع المحيطة صقيع وعمر، ويرد لم أعتده، لكن ما خفف عنى أن كل خطوة تقربنى إليها، كنت أمشى محاذرا الجليد فوق الرصيف، متدثرا بمعطفى، مسدلا غطاء رأسى. جزت البنايات الهائلة، والمداخل، والنواصى المؤدية، حتى اجتزت الباب الخارجى الفسيح إلى الممر الدائرى الذى يتخلل الحديقة، بالضبط الثانية عشرة، المقاعد مثقلة باكوام من ثلج هش، تحسبه بالنظر صلدا

حتى إذا لمستهُ أو أمسكت بحفنة منه تدرى، تماما كغياب وعيك بعض اللحظات، أثارت نصاعته عندي بهجة غامضة. تذكرت صاحبة لى تقيم فى مدينة نائية، قالت لى يوما إنها تتفاعل بنزول الثلج، وقفت متطلعا إليه، منصتا، الشتاء يضيف بعدا غامضا على الموجودات، لعلى ألتقط إيقاع مرور الوقت، الزمن، أو ذلك الخفى المبين الذى يجمع ويفرق، غير أن ضجيج المدينة المندغم. المدوم، حجب وأبهم.

سمعت خطاها. صوتها ينادينى دهشا، مبتهجا، التفت فرحا، فوجئت، لا ترتدى إلا قميصا من صوف خفيف، اجتازت الحديقة نحوى حاسرة دون غطاء رأس. دون معطف. كيف تخرج هكذا. أشارت إلى ساعتها..

«الثانية عشرة تماما..»

أشرفت، أجبته..

«طبعاً»

مبتسمة، مهتلة، ضاجة بالفورة الحيوية، تصور يا أخى لو امتد الأمر عدة من أيام آخر، تصور توالى ظهورها، تنوع إبداعها وطلاتها وجميل لفظها المقتصد. فى كل مرة تجدد، وتهلل مغاير، وتعاقب تعبيرات على الملامح التى أخذتتى حتى عن نفسى، غير أن لهذا اللقاء الأخير معزة ومنزلة، عند تواجدها اختلف الوضع عن المرات المنقضية، فبعد أن دنا كل من الآخر الليلة الماضية، بعد تماس كونها بعالمى، صار عندها منى، وعندي منها، امتد وقت، ومودة، وصلة، أما قريبا منى

فله خصوصية أخص، ضاج، فواح، مشع تجاهى، فكأنى
 بالنظر ألمس جسدها، أتوسده، هذه الوقفة، تلك الطلة. قريبا.
 ترحيب عينيها، علق بى هذا كله، صار مددى فى قفري، وزادى
 فى بيدائى، وخلال أيامى التى تمكن فيها الفرح المريب منى
 طال توقعى لظهورها، كما بدت فجأة فى هذه الحديقة، لم يكن
 وعيى بفقدتها قد بدأ بعد وهذا حال خبرته، لكن فى ظروف
 مغايرة مختلفة، وإنى لقاص عليك نبأ منها لعلك مدركى. اعلم
 أنه بعد رحيل أمى. ورحيل أبى، انقضت أيام ثقال لا يمكننى
 إحصاؤها الآن، كنت أهيم خالها فى الطرقات غير واع
 بالفقد، غير مصدق، متوقعا ظهورهما عند أى منعطف، أو طرق
 أبى بابى كما كان يفعل. أو دخولى صالة البيت فأجدها فى
 انتظارى، شيئا قشينا بدأت أنتبه للفقد المحتم، وإن ما كان لن
 يكون. لن أصغى إلى الصوت الذى ألفته، ولن الأمس اليد التى
 عرفت، انتبه يا أخى إلى ما قلته لك، انقطاع الرجاء من لقاء
 الحى أصعب، فمن رحل إلى أبد يبلغ المدى بأمله وصحبه حدا
 يتوسأ، فما من إمكانية قط، وهكذا يقضى اليأس إلى النسيان،
 لذا يقولون إن كل شيء يولد صغيراً، عدا الحزن على الميت
 فإنه يبدأ كبيراً ثم يضم، أما فراق الحى فهذا هو البين عينه.
 والبأساء والخسر، خاصة إذا تباعدت الديار، وشط المزار،
 وأدرك الوهن أملا فى لقاء، اعلم يا أخى أن الأيام الأولى التى
 حدثتك عنها شبيهة بالخروج من دفة الغرفة إلى الصقيع،
 جريت هذا. بعد الخروج تنقضى لحظات لا يصلك فيها شدة

البرد. ثم شيئاً فشيئاً يسرى، حتى يلفك فترتجف، إنها أشبه
باللحظات الفاصلة بين وقوع الصدمة والشعور بالألم
الجسماني، في هدأة أنفرادى ذلك العصر. ألقيت بذاتي في
عينيهما الواسعتين، الفسيحتين، فجأة غزاني خوف غريب، متى
سأراها، وما الحال الذي سألقاها عليه، قلت:

«أخشى الموت، وإلا أراك..»

بادرتني على الفور، رنتها عاتبة، شاكية قولي..

«لكنك يجب أن ترجع إلى...»

اعلم يا أخى أن الوجد يبدأ مع اكتمال الرحيل، وتباعده
الديار وانعدام اليقين من الأوبة، هذا عين الخطب الموجه، شيئاً
فشيئاً بدأ فرحى يذوى ويبدأ وعيى يبعدها، بالمفازات. بما
يفصلنى عنها من مواضع ويرارى وقفار وفلوات وخراب.
بحار، وتلال، ارتفاع وانخفاض. ومراع ومدن. وهذه مواضع
ستتبدل يوماً. فالبهار ستصير جبالاً والبحار ستصبح رمالا،
فلا شيء يبقى، إذن.. فما أبعد التلاقى، وطول المسافات،
واختلاف النظم، وريية العسس فما أتعس وما أظلم، تطالع
شمسى قبل شروق شمسها، ويسدل ليلى قبل ليلها، فلا
الزمان يوحدنا، ولا المكان يجمعنا. فماذا بوسعى أن أفعل؟
حتى إذا انقضت شهور، وعادت الفرصة، وساعد الوقت، فهل
سألقاها؟ ربما تكون على سفر، أو فى شغل عنى، أو عرض
لها عارض أحالنى إلى مصادفة جد عارضة فى حياتها
المتدفقة. وإذا دنوت وقمت واقفا أمامها، هل سألقى من
عرفتها؟ -

كنت المبح لك دائماً أن الإنسان فى الثلاثين غيره فى الأربعين، وأننى فى الخمسين مفاير لما كنته فى العشرين. تذوى أمور وتستجد أشياء لم تتوقعها من قبل، لم تدرب بخلدنا يوماً، تنزوى أصول لم تتوقع قط تلاشيها. أذكر قولك إن الجواهر لا يتغير. صحيح يا أخى، لكن هل تظن أن اللب قصى؟ مستعص على التغيير؟.. أقول إن الأمر غير يقينى، الآن أطيل النظر إلى ما فات، ما انقضى أطول مما تبقى، أما هى فتسعى بعيداً عنى، ويبدو ما ينتظرها بعيد المدى..

لما اكتمل وعيى يا أخى بالبعد صرت إلى شجى، إلى أسى، هكذا ناء الوجد، صرت أسعى إلى كافة ما يمت إليها، قرب أو بعد، حتى الإذاعة التى تتخذ من مدينتها مقراً، اعتدت الإصغاء إليها، أحاول جاهداً تمثل المذيع، رسم ملامحه من صوته، ربما يسكن على مقربة منها، بإمكانه لو أنه يعرفها لسعى إليها، أن يبلغها بعد دقائق، صرت أتفحص الخرائط، أضع العلامات، بخارى، سمرقند، طشقند.. موسكو، تحركنا من هنا إلى هنا، اكتمل ظهورها فى مدينة. وتعارفنا فى بخارى، وشرعنا فى سمرقند، وفى العاصمة الكبيرة جرى التلاقى والتفرق. أما الحنين والتذكر فله قاهرته الحانية على، هكذا.. كان اللقاء فى قارة، والفراق فى أخرى، والوجد فى الثالثة، صرت أقعد فى جمع يا صاحبى فأكد أسمع سعيها البعيد. توشك أن تقترب منى حتى أتأهب لتنسم عبيرها المفقود، المتفرد، أدرك بغتة الاستحالة، فأفارق الصحبة. أبتعد

عمن أعرف. أستقبل وحشة الطرقات. أمضى بلا هدف، بلا مقصد، حولى حشد، لكنى فرد، متوحد، أحيانا أمضى إلى صاحبي، من رافقنى رحلتى، من رآها، من حادتها، وأطلع على بعض مما عندى، حتى إنه صار إذ نلتقى يسألنى ضاحكاً..

«.. أنت هنا أو هناك..»

فأجيبه مبتسماً..

«فى الأمر وحشة..»

بعد نزوى إلى شيوخ أمرى، إلى الإفضاء بما عندى لكل أحد ارتددت إلى، أما حضورها عندى فصار مختلفاً عما جرى فى الأيام التالية لعودتى، أحيانا تبدو فجأة، ليس أمامى فقط، وإنما حولى، أصغى إلى تحفظها على تبادلنا الخطابات، استعيد ملامح حذرنا البادى، فأنا عند قومها أجنبى، وما أكثر الريب!! غير أنى إثر انقضاء أيام الفرح. وبدء طرقات الوجد، لم أبال، رحت أشيع الرسائل. مرة فى الصباح، والثانية عند الظهر، والثالثة ليلاً، أكثر من شهر كامل، أحيانا لا أخط إلا التحية، وكأنى استعيز عن نطقى بكلماتى المكتوبة..

ولم اتلق رداً، لم تصلنى إشارة..

مع بدء الشهر الثانى ولأسابيع عديدة لم أتخلف يوماً عن تشييع رسالة عند مطلع كل يوم..

ولم تصلنى مجاوبة، لم تترد رسائل إلى..

كنت كراكب سفينة، تبحر مبتعدة عن المرفأ، والميناء

كنت كراكب سفينة، تبصر مبتعدة عن المرفأ، والميناء يتضائل، تغيب ملامحه، تختلط مبانیه، تصبح تضاريسه مجرد خطوط لا تنم عما تحتويه من حيوات ومصائر. حتى إذا بلغت المسافة حدا تداخل البحر فى البر. وطلعت السيولة والديمومة، فيبدو ما كان وهما.. والبحر يطغى، ليشمل حتى الأفق..

دام حالى مدى، ولا إشارة، ولا إيماءة خط حتى، مع توالى المسافات انتهى بى الحال إلى المناسبات، فمن ذلك رأس السنة، وقدم الربيع، ويوم مجيئها إلى العالم، ويوم اكتمال ظهورها بين شجرتى التوليب، أهدق إلى العنوان، هذا خطها هى، الشارح، الرقم، كتبتة عندما كنا نجوز الفضاء عاندين من آسيا، إذن.. العنوان حقيقى، واليد التى خطته حقيقية، والوجه الذى دنا وأبتسم عند تقديم الورق له كينونته، ألم أقترب؟ ألم أهدق والامس؟ عندئذ يتوهج داخلى يا أختى فأوشك على استعادتها عندما احتويتها، عندما طويتها بين ذراعى، عندما أقلت صوب عينيها. صوب شفيتها، عندما تموج جسدها وتحرك متبعا تناغمه الداخلى لينبئ أنه طوعى، وأنه ملب إن إردت. إن دفعت الأمر قليلا، إن خطوط خطوة يسيرة، غير أن الوقت المحدود، والفرصة غير المساعدة، والرحيل الوشيك، وما سيطر على فكرى ويقينى، أن بقاء هذا الوله فى عدم اكتماله، هل أخطأت؟ لا أدرى.. ولكن الشك يعاودنى مع ضياع المدة، أمضى إلى ما قدمته إلى قبل أن يتخذ كل منا طريقه، الساعة العتيقة ذات الجرس الخزفى، أستعيد قولها إذا قرعت الجرس

يوما، فسيصلنى صدها أينما كنت. أمسك الساعة أخرج إلى صحراء الصبوت الليلي. أهزها، أصغى إلى الرنين المعدنى إذ يتلاشى، أطيل إصغائى.. ما من نبأ!

عرفت الانصراف المفاجئ وأنا فى جمع، إذ يتدبب وعيى فجأة. أنها نائية، قصية، وإن اللقاء صعب، عندئذ أدخل فى هجاء لما يملكنى من يأس اللقيا، ومن انعدام إمكانية مشاهدتها مقبلة على، أو حانية بنظراتها، أو مجاوبة بحركاتها النغمية. حيث يتخذ جسدها المطواع، الفاره، أوضاعا عجبا، أو سكون ملامحها عندما طلبت أن نقضى الدقائق الأخيرة صامتين، يتطلع كل منا إلى الآخر، يتزود كل صاحب من صاحبه، ثم أهدتنى ثلاث زهرات، هكذا.. أستعيد تحديقها إلى، وأحيانا أوشك على الإصغاء إلى سعى عبيرها نحوى، هذا أصعب الوجد يا صاحبى، فلکم أمضيت الوقت مستنشقا نسائمها. من ثيابها، من راحة يدها، من خصلات رأسها أتأهب لوفودها على. أقف صامتا، متطلعا إلى الجهة التى أتوقع منها القدوم والورود. وإذا يكتمل وعيى بأننى ما كنت أسعى للاندماج إلا بالصورة، أفز من مقعدى راغبا فى اختراق اللاممكن، وإذا أنوء أرتد خائبا، مستعيدا نظراتها. حنوها. مستفسرا. متسائلا، هل ما جرى كان حقيقة أو وهما، وهذا ما أمر به الآن، هذا دافعى لمخاطبتك أنت دون غيرك، فلم يعد لى من الأقربين إلا أنت وإن بعدت المسافة، وطال زمن غربتنا عن بعضنا، فما وصفته، وما سرته، وما رويته، لم يكن إلا محاولة

أيضا للملحة ما تبعثر، لاسترجاع ما غلب عليه الوهم واللايقينية. وإن ما كان حقا. وليس برقًا لمع، أو شهابا مرق، وإلا فأى وجد هذا يبحر داخل؟ ويبقى نائيا عن الخلجان والمرافئ الآمنة، أحيانا أنتظر مرات هبوبها على وأتمنى أن تحل بى، فينزل على قلبى بردا وسلاما، أشبع بغير امتلاء، كما حدث ذلك الشيخ الجليل، عن حاله، قبل عدة قرون زمنية، إذ قال ما نصه يا أخى:

«وقد بلغ بى قوة الخيال أن كان حبى يجسد لى محبوبى من خارج لعينى، فلا أقدر أنظر إليه. ويخاطبنى وأصغى إليه وأفهم عنه، ولقد تركنى أياما لا أسيغ طعاما، كلما قدمت لى المائدة يقف على حرفها وينظر إلى، ويقول لى بلسان اسمعه بأذنى.

«تأكل وأنت تشاهدنى...»

فأمتنع عن الطعام. ولا أجد جوعا، وأمتلىء منه حتى سمنت وعبلت من نظرى إليه، فقام لى مقام الغذاء، وكان أصحابى وأهل بيتى يتعجبون من سمنى مع عدم الغذاء لأنى كنت أبقي الأيام الكثيرة لا أذوق ذواقا، ولا أجد جوعا ولا عطشا. «هذا ما دونه الشيخ الجليل، وليتنى مثله، قنعت بما كان عليه، لذلك أولى وجهى صوب اللاجهة، متوقعا اكتمالها أمامى، كما كانت عليه فى اللحظات الدانية من افتراقنا، ورأسى بين راحتها، عندما قلت لها..

«أخشى الموت، ولا أراك..
فألقت فى سمعى قولاً جميلاً، حزيناً.
«لكنك يجب أن ترجع إلى...»
ولهذا أسعى يا أخى، بلغك الله ما تتمنى..»

جمال الغيطانى
مارس - يوليو ١٩٨٧

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٩٥/٥٢٨٤

I.S.B.N. 977-01-4453-3



مكتبات الإسكندرية

Bibliotheca Alexandrina



0403907



مطابع

الهيئة المصرية العامة للكتاب



بسر رمزي جنيه واحد

بمناسبة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٥